زوجتى لا تريد أن تتزوجنى

فتحى سلامة



دار زويل للنشر
القاهرة ٢٠٠٠م

المــؤلــــف : فتحى سلامة

الـكـتــــاب: زوجتى لا تريد أن تتزوجنى

الـنـاشــــر : دار زويل للنشر

تصميم الغلاف : محمود القاضى

الطبـعـة الأولى : ٢٠٠٠م

رقم الإيـــداع : ٢٠٠٠/٨٣٢٤

الترقيم الدولى : ٥ - ٤٣ - ٥٩٠٥ - ٩٧٧

نادى القصة

٦٨ شارع قصر العينى القاهرة

ت :٧٩٤١٩٢٩

دار زويل للنشر

٧ ش البستان ـ ميدان التحرير

ت : ٥٧٩٦٠٦٠ - ٥٧٩٨٠٩٨

E.Mail: Zaweell@hotmial.com

زوجتى لا تريد أن تتزوجنى

كلمة النادى

«زوجتى لا تريد أن تتزوجنى» «مجموعة قصصية للروائى والقاص الكبير فتحى سلامة، وهى الإصدار الخامس من سلسلة «الكتاب الفضى» الجديد الذى يصدر عن نادى القصة بالقاهرة.

وصدور هذه المجموعة يؤكد استمرار السلسلة بانتظام فى نشر إبداعات أعضاء النادى من الروائيين والقصاصين واستكمالاً للأعمال الفائزة بجوائز نادى القصة من المبدعين الصاعدين.

هذا التفاعل الجاد بين الأعضاء العاملين بالنادى والأدباء الفائزين يعبِّر عن تواصل الأجيال وإصرار «نادى القصة» على تحقيق الهدف الرئيسى من إنشائه وهو رعاية الإبداع الروائى والقصصى لكل المبدعين فى مصر.

وإلى مزيد من الإبداع، والله ولى التوفيق

نادى القصة

فى الصباح كان الخبر منشورا منزويا فى ركن بصفحة الحوادث. قرأته بعينى. وجدت امرأة مخنوقة فى فراشها والنيابة توجه الاتهام لزوجها. قرأت مثله من قبل عشرات المرات، بل أظن مئات المرات. ولكن لفت نظرى كلمة (مخنوقة)، لماذا لم يكتبوا مقتولة. دفعت بالجريدة بعيدا ورحت أتأمل الفرق بين الخنق والقتل والموت. راعنى أن هناك فروقًا واضحة، وأصابنى الذعر أن القتل يعطى الانطباع بصدور حكم نهائى وتحويله إلى عشماوى، والخنق يصيبنى بالذعر ولدى احساس أننى مت قبلاً بالخنق وكلما قرأت خبر اعدام بالشنق على يد عشماوى. أسرع بخلع قميصى وأتحسس رقبتى، وهذه الزوجة وجدت مخنوقة، والمتهم زوجها رباه.. هل واتته الشجاعة ليفعل هذا، نظرت زوجتى نحوى ورفعت الطعام من أمامى، زوجتى وضعت حاجزًا سميكًا بينى وبينها منذ فترة طويلة، وتجدد المشاجرات كلما شعرت أن الحاجز الذى صنعته يكاد يتهاوى، فتزيده سمكًا بالهجوم، واحتمى أنا بالحاجز

وأشغل دماغى بأمور بعيدة عن كوكبنا. لهذا رحت أفكر فى الفــروق بين الخنق والـقـتـل والذبح واطلاق الرصـــاص وتعددت الأسـباب والموت... دق جرس التليفـون فلم أسرع للرد حـتى أعطى زوجـتى فـرصة أن تعلـم من الذى يتكلم ربما تكون سـيـدة ذات جمــال... قلت لهـا أن الحب ضنين، والعشق أنين. قالت بل تشرب كما تشاء - لا نمنع عنك ودا ولا وصالاً. ترنحت من النشوة، ورفـعت الكأس إلى شفتى وقلت مـا أنا براغب فى العـشق ولا فى الوصل، تبـسـمت وقالـت وما تريد، قلت وأنا امـتص بقايا الكـأس، شراب لا ينفد، صاحت زوجتى عبـد العال يريدك، ايقظنى عبد العال بلهجتـه السوهاجية صارخًا فى غـضب، واتهمنى بالتكاسل عن مساندة الأصدقـاء وقت الشدة تركته ينطلق فى ثورته، وقد تشابكت الكلمات التى تصك أذنى، لا أكاد أميز منها إلا القليل... مـحمـد رستم فى الـنيابة، رسـتم الوديع الحنون، الباسم الذى يجـلس معنا فيـضىء مجلسنا بأنســه، ويشرح صدورنا بحديثه، تعودنا أن نجلس فى حديقة النادى مساء

كل خميس ونتحدث فى كل شئ، ثم ينطلق نظمى ليحضر الطعام الذى اقترحه رستم، كل خميس نأكل طعاما مختلفا يحدده رستم، ولنا صديق فى كل محل لذاك الطعام، فإذا كان لحما مشويًا. فصديقنا فكرى صاحب أشهر محلات المشويات، وإذا كان سمكا فلدينا مختار الكباتى تاجر الاسماك وصاحب عشرات المحلات المختصة بالاسماك وطعام البحر، ولا نعدم صديقا فى محلات الكوارع أو الحلوى أو الكشرى،.. ونظمى هوايته أن يذهب ويحضر الطعام، وعادة يضع أمامنا كميات هائلة نأكل حتى نشبع ويأكل بعدنا عمال النادى، ونتشارك فى النفقات حتى إذا انتصف الليل، تواعدنا على لقاء، صاح عبد العال لماذا لا تفهم، محمد رستم فى الحبس، الحبس مثل السجن، الفرق بين الحبس والسجن شاسع، ولكن لماذا حبسوا محمد رستم، منذ عام أو يزيد وهو على غير عادته، بدا متوترًا قلقًا، ثم متلعثما إذا تكلم، منصرفًا عن الطعام الذى لم يعد يختاره وترك المهمة كلها لصديقنا نظمى، قال عبد العال

وهو يكاد يقفز إلى أذنى عبر التليفون. اتهمود بقتل زوجته... نانى. نفيسة السيدة الرقيقة التى كانت تذهب لإطعام القطط والكلاب، ولا تأكل اللحم، تلك النسمة الرقيقة التى كنا نكف عن الحديث أمامها خوفا عليها من أن تصيبها أصواتنا الخشنة الغليظة، وتبتسم فى رقة وهى تنظر إلى زوجها رستم منصرفة لتلاعب أطفالها، ولا نعود إلى الحديث إلا بعد أن نطمئن إلى انصرافها. نبدو أمامها مثل صبية أشقياء أمام ملاك خارج توا من المسجد... قلت لك قتلها، خنقها، ليس مهما أن تعرف الفرق الآن بين خنقها أو قتلها... وماذا يهم بعد، ذلك الرجل الرقيق وتلك السيدة ذات الحضور الملائكى، لا أصدق، عاد عبد العال يصرخ، مكتوب فى الصحيفة ورستم فى الحبس، ونفيسة فى المشرحة، كيف أخرجك من عالمك المجهول هذا، تحرك يا رجل، أتحرك وماذا أفعل نظرت إلى زوجتى التى بان عليها الحزن، شديدة الرقة، نحيفة، أخشى عليها من حر الصيف وبرد الشتاء، تجافينى، تخاصمنى، تتهمنى، ولكنى أحبها،

ولا أتصـور الحيـاة بدونها... تذكـرت أن هذا ما ذكـره لى محمـد رستم منذ زمن عن زوجته أيضًـا، ومع هذا يصرخ عبد الـعال طالبًا منى أن أتحرك حـتى ننقذ صديقنا مـحمد رستم، ومن الذى ينقذه غيرنا يا عبد العال، انقطع صوته... ذابت كل الجسور عندما رأيتـه يبكى لأول مرة، كنت أسأله عن سـر تحوله، انكمـاشـه الدائم داخل ذاته، لم يعـد كمـا تعودنا، لم تعد جلسات النادى مساء الخميس تهمه، يحضر أو لا يحـضر، وإذا حـضر لا يشـارك فى مناقشـة ولا فى طعـام، مـرت أسابيع كـثـيـرة، ومناسبـات كنا نقـيم لهـا احتـفالات خـاصة هو الـذى خططها لنا، ولكنه لم يعـد، لم نشعر به وهو يتسلل خـارجًا عن الشلة، كنا نظن أنه معنا، نفعـل كما خطـط لنا، لم يفكر أحدنا أنه غـائب... أليس هذا امـرًا غريبًـا، كل هذا الحضـور لصـديقنا ثم إذا اختـفى لا نحس ولا نشـعر، ياه.. هل كلٌ منا دخل إلى عـالمه واختـبأ خلف نفسه، وما كنا أصدقاء، ولا حتى معارف، مجرد عدد من الأفراد يجتمعـون وينفضون، لم يكن واحد زائد واحد،

كنا واحدا فقط كل منا واحد لا يصلح جمعه ولا طرحه، أرقام، بل أصفار، مقاعد فى حديقة النادى يثرثرون، مثل شتلات الزهور كل واحدة لا تعرف عن جارتها شيئًا، ومع هذا تحسبها نوعًا واحدًا.. قال أنا لا أدرى ماذا أفعل، قلت إحك لى كل شئ، قال فى ابتسامة ماتت قبل بزوغها، ليس الآن ومضى، نسيت الأمر، كانت زوجتى تطالبنى بالطلاق، وكنت أضحك وأحيانًا كنت أبكى، ولكن الزحام شديد، فى الشارع، فى العمل فى مكاتب الحكومة، أمام البقال، الزحام أكلنى لم يبق منى إلا القليل، وضعت يدى على رأسى، قال الطبيب هذه قائمة بما لا يجب أن تأكله، قلت كان يكفى أن تكتب ما آكله فهذا أكثر راحة لك، دفعت كل ما فى جيبى وخرجت، قال الخضرى أنك تهاجم الأطباء، شكوت له عدم تمكنى من الحصول على الدواء، ابتسم وقال هل شرب الشاى مفيد؟ ذهبت إليه، كانت الإجراءات طويلة ولكنى تحملت، قال الضابط يجب إلا تكتب شيئًا مما سوف تراه، أومأت برأسى رأيته شاحبًا، وقد تغيرت ملامحه لم يعد هو

ذلك الشخص الذى أعرفه. قال فى صوت خفيض لماذا حضرت. أخذتنى نخوة الفلاحين وقلت: الصديق فى الشدة. سكت قدمت له بعض الطعام. وصارحته بشكى. لم يتكلم. لم أكن مصدقًا ان هذا الرجل الوديع يقتل. أقصد يخنق. ويخنق نانى أو نفيسة زوجته تلك المرأة التى كانت مثالاً للرقة والطيبة وحسن الخلق،.. هل.. لا أعتقد، إنه رجل شريف أمين عفيف وهى كذلك. لديهما المال والمنزل والأولاد. ليس لهما أصدقاء كثيرون..، يعيشان فى حالهما كانا يحضران إلى النادى دومًا. ولولا هذا ما تعرفنا بهما. اندمج هو مع مجموعتنا حتى صار شهابها. وانزوت هى مع أطفالها. واحترمنا لها هذا الانزواء. فنحن أيضًا من الفلاحين الذين لا يزالون على عهود الآباء. بعض منا كان يتباهى بزوجته التى كانت تشترك معنا فى اللعب والحديث والمجادلة وأحيانًا تسخر من زوجها الذى يقابل سخريتها بصخب من الضحكات،.. ظريفة اليست كذلك. كنا نسعد بوجود أمثال تلك الزوجات المرحات ولكن على شرط أن

يكن زوجات لغيرنا... كان محـمد رستم، يقول اراء جريئة، ذات مـرة قـال فى ثورة. لا أدرى لماذا لا يخـرج الفـقـراء شاهرو سيوفهم للحـصول على طعام من الأغنياء، على بن أبى طالب جعل للفقراء حقا مـكتسبًا فى مال الأغنياء، ولكن الفـقراء تقـاعسـوا، استـسلموا لجـوعهم، وكنا نخـاف من حديـثه، وأحـيانًا نراه سـاخطًا على بلادة العمـال ومكرهم وخـداعهم لصـاحب العـمل... وتذكـرت أنه ثار ثورة هائلة عندما علم بخبر حادث الاقصر، كان حزينًا وثائرًا ولم يأكل فى ليلتها، قـال أن هذا العمل برئ منه الإسلام، قلنا ولكنك تطالب الجوعى بالـثورة، قال فى حسـم وهل من فعلوا هذا جوعى؟. انهم هم الذين يحرمـون الناس من الطعام، لم أعد أفـهم وجـهـة نظره، هل هو مـع التطرف أم ضـده... هذه الفنانة اعتزلت الفن، وتنسكت فى دارها، ولكن فى كل يوم يعرض لهـا فيلم قبـيح، فهل تأكل من عملهـا السابق الذى أدانته بنفـسها، قلنا، يا رجل لا تكن... قـال هل تفهمـون ما هى الحنبلية، أحيانًا كثيرة نـسمع منه كلاما كبيرًا يدل على

علم غزير. نتحدث نحن عن الأمـور السطحية، وهو يأخذها
ويحللهـا ويكشف لنا خـبـاياها، وعندمـا يضـيق صبـرى
بحديثـه. يتكلم عن علاقته الخـاصة بزوجته ويقـوم بشرح
مـفصل عن مـضـاجعـتـه لزوجـته، نلهث ونحـن نستـمع
لصبـرى، ويتبـارى الجمـيع فى إثبات فـحولته، ويقـاطعنا
مـحمـد رسـتم بضـرورة الذهاب لصلاة العـشـاء، لم يكن
يشترك معنا فى هذا الحديث، حتى ظننا أنه لا يفعله، ولكن
صبرى يهمس فى سخرية ويقول إتقوا الرجل الصامت فى
مـثل هذا الحـديث، أنه هو الذى يفـعل أمـا أنتم جـمـيـعًـا
فكانبون مدلسون، ضحكنا لعفوية صـبرى، قال عبد العال
إنه لا ينام قـبل أن يؤدى واجبه، وقـال مفـسرًا أنه مـجرد
واجب، وقـال أبو دومه بـل هو (كرباج)، علـقة سـاخنة إذا
نجح الزوج فى الهروب منها فهو الكاسب ولكن لم يستطع
أحد أن يهرب منها، ضـحكنا وتصورنا أبا دومه وهو يجلد،
نحيف أبيض شعر الرأس، ويقول الشـعر، نظرت إلى محمد
رسـتم، الذى ظل صـامـتًـا، قلت يجـب أن يكون هناك من

الأسباب القوية التى دفعتك لكى تخنقها وسوف يسألونك فى المحكمة، وسوف يلح عليك وكيل النيابة والمحامى... فأخبرنا حتى نفهم، أو اخبر محاميك حتى يمكنه الدفاع عنك، نظر نحوى فى رجاء، قلت أنا لا أعمل فى مجال الحوادث ولن أذيع لك سرًا.. إذا أردت أنا هنا لأننى أكثر أعضاء الشلة قربًا منك، فأنا أرغب فى خنق زوجتى مثلك ولكنى لا أستطيع، نحن متقاربان فى شئ ما أود أن أعرفه حتى أجلس معك فى الحبس أنا أيضًا، ضحك فى توتر، قال سوف يأتون لاخراجك الآن فاذهب... وسألت كل الأصدقاء، وذهبت إلى منزل رستم، واتهمنى رجال المباحث بالتدخل فى أمر يخصهم، عرض زميلى فى قسم الحوادث أن يساعدنى فى كشف المجهول فهو يعمل فى هذا الميدان منذ ربع قرن، وتلك الحوادث بالنسبة له مثل وجبة الإفطار، لا جديد فيها، زيت بالفول أو فول بالزيت الزوجة خانته مع رجل أخر، ساورته الشكوك، حتى صار الشك يقينا خنقها، هل هى فزورة يا أستاذ، لا ليست فزورة يا مجدى، انه

صديقى وزوجته كانت مثالاً للشرف. الإنسان لا يتحول هكذا فجأة. لم نلحظ عليها على الرغم من ندرة وجودها معنا. وغيابها المستمر فى الفترة الأخيرة عن الحضور إلى النادى إلا أننا كنا جميعًا على ثقة... غاظتنى كلمة (جميعًا) فلا أحد يستطيع أن يضع الكل على رأى واحد، منا الخبثاء الذين يقصون علينا قصصا لا يمكن تصديقها، أب وابنه، خال وابنة اخته، التبادل المكشوف للزوجات والازواج... لا ليس هذا صحيحًا إنه نتيجة أحلام يقظة لعقل مكبوت مربوط فى سلسلة قصص ألف ليلة وليلة، وإذا كانت هناك حادثة حقيقية، فهى مجرد حادثة واحدة لا تتكرر كثيرًا، يرتكبها عقل مشوش لم يعد يعرف ولا يريد أن يعرف... ومحمد رستم نفسه يؤكد شدة الحديث فى هذه الأمور التى تدفع إلى المبالغة، يقول مجدى صدقنى يا أستاذ، وعبد العال يقول المسألة أخطر من هذا، وقطب يؤكد أن هناك سرا مخبوءًا سيذهب مع محمد رستم دون كشف، وصبرى يقول صدقونى، المسألة كانت خلافًا على مصروف المنزل

وشراء اللحم أنا شخصيا أعانى من هذا مع زوجتى التى تتشاجر معى يوميًا بسبب المصروف، ويهمس ناجى بأن نفيسة زوجة محمد رستم كانت تعايره بقلة فحولته معها، ثار عبد العال وقال ليس هذا صحيحًا وارجوكم كفوا عن أكل الرجل حيًا، أنه زميلنا ويجب أن نتعاون لكى نخرجه من محبسه، نظر نحوى وقال: أنت تملك أن تفعل هذا فهو يستجيب لك ويأخذ بأقوالك، ثم أنك تشبهه فى أشياء كثيرة أهمها أنك لا تدخن ولا تجلس معنا مجلس الشراب مثله، إذهب إليه فقد فشل المحامى فى معرفة أسباب الحادث، وأيضًا النيابة التى تود مساعدته، تصطدم بصمته، ذهبت إليه، يا رستم لماذا لا تقول شيئًا، تصور أن المجرمين العتاة يصرخون بأنهم أبرياء، وقليل منهم يتباهى بأنه أخذ بثأره من المقتول الذى سلبه كرامته أو ماله أو شرفه.. صاح فى غضب وقد صار نحيفًا غير حليق الذقن وملابسه ممزقة، إنها أشرف من نسائكم جميعًا، قلت بسرعة قبل أن يهرب إلى صمته، إذن لماذا خنقتها قال وهو لا يزال غاضبًا كان

يجب إسكاتها. خنقتها حتى أشعر بالراحة، حتى تذهب من أمامى. فأنا أحبها ولم أحب سواها، عرفت هذا فأذلتنى بحبى، داست على كرامتى بسبب عشقى لها... المسألة إذن لا تخلو من ثأر، (تاربايت) مثل ما يحدث فى قرانا،.. إتهمتنى بالخيانة وأنا لم أفعل، هجرتنى فى الفراش حاولت أن ادافع عن حبى، كلما فعلت شيئًا أخذته على أنه ضدها، أحست بالسعادة لأنها صارت هى الاقوى وأنا الأضعف، تسلل حب الذات إلى قلبها، تحبنى أنا أعلم هذا ولكنى أحبها أكثر هى صبورة وأنا أصبحت مشوشًا، أثور عندما أراها أمامى ولا أستطيع امتلاكها، زوجتى لا تريد أن تتزوجنى، تتدلل، تتباهى بأنها الأقوى، أعجز عن مجاراتها بحثث عن حل، كل الحلول المقترحة لم تكن تروق لى،.. اضربها، لا اتصور أن أفعل هذا، خذ حقك منها فهذا شرع الله، ولكن كيف.. بالقوة، أهذا هو الحب، أنها لم تعد كما كانت، ساورنى الشك، طالت المدة، اقترب العام الثانى ونحن هكذا أحيانًا يسود الهدوء بيننا، ولكن بلا عواطف، هى فى حجرة

أخـرى وأنا عدت إلى أيام عـزوبيتى. أصـبحت عـازبًا وأنا متـزوج وأعول كيف أكـتب أننى متزوج وأعـول فى كشف الضرائب، أنا لست زوجًا، مـجرد صراف، ولا يزال أولادى ينادونى: بابا، هل أنا فـعـلاً بابا، أم مجـرد رجل لا أهميـة لوجوده من عدمه، هل صارت الأمور إلى هذا الحد، لا يريد أحد أن يساعدنى، استطاعت هى أن تبعد عن نفسها كل من يريد المسـاعـدة، هى التى خنقـتنى.. تصـور هكذا قـتلتنى، أماتتنى لانى أحبها.. صمـت فجأة، قلت وماذا بعد، قال فى سـخرية، وهل هناك بـعد يا صـديقى، عندمـا ترى حيـاتك تتفـتت أمام عـينيك وأنت لا تقدر على فعـل شئ، تغرق فى دوامة حب لا تستطيع مقاومتها.. خنقتنى، هل تصدق هذا.. خنقتنى فخنقتها!

الأهرام مارس ١٩٩٩

اللؤلؤ المنثور

كل شيء في الأرض به من الخيرات الكثير.. سواء فوق الأرض أم في باطنها.

ملخص سريع لأحداث المسلسل

أحد تجمعات العمل، التابع لاحدى شركات المناجم والتعدين، التجمع فى منطقة نائية يقترب موقعه من البحر إلى حد ما، هذا التجمع البشرى، على الرغم من عدد أفراده القليلين نسبيا، إلا أنه يحوى نماذج بشرية عديدة، بعضها جاء هربا من التار فى قريته، والبعض الآخر لأنه فنى ونقل إلى هذا الموقع النائى، يدير الموقع مهندس، جاء هربًا من حب فاشل، وأن كان هو نفسه ذا كفاءة عالية، وأمين مخازن وعهدة يعمل فى الموقع منذ زمن طويل لا يذكره منذ أن كان ملكًا لأحد الخواجات، يقيم مع ابنته الوحيدة بعد موت زوجته، ورئيس عمال فنى يقيم مع زوجته خريجة المدارس الفرنسية وقد تحابا، وعاشا فى المجمع السكنى، ولكن بتقاليد أولاد الذوات، ولهما ولدان وابنة، ثم مجموعة أخرى من العمال متزوجون ويقيمون فى مساكن

التجمع، واخرون لم يتزوجوا بعد، لهذا فإن التجمع السكنى مقسوم قسمين:- قسم للعائلات، واخر للأفراد، ومكاتب بسيطة للمهندس ولأمانة المخازن، ومعدات المنجم بدائية.

نرى الجميع يترقبون وصول (عربة الابونيه) وهى الصلة الوحيدة التى تربطهم بالعاصمة، تحمل إليهم الطعام والأدوية والرسائل والاخبار، كما يأتى بها من كان فى أجازة، لتعود فى اليوم التالى وبها الرسائل ومن جاء عليه دور الأجازة (عم أبونيه) لا يحمل فقط الرسائل الرسمية أو العائلية إنما يحمل (الطلبات الخاصة) وفقًا لرغبات سكان التجمع، وهو كاتم أسرارهم لأنه يحمل كما يقول (أمانات ناس).

ولكنه فى ذلك اليوم الذى يصل فيه إلى الموقع، والذى ينتظره الجميع بفروغ الصبر، ويجعلون من يوم وصوله تاريخًا لمعرفة الأيام يهبط عم أبونيه ومعه (رجل مهم جدًا).

العمال، سواء منهم المتزوج أو غير المتزوج، والفنيون ومعهم رئيسهم المهندس، متبرمون بالحياة فى هذا الموقع

الناس عن العمران. وكل منهم يحسب أيامه الباقية في هذا المنفى البعيد. بل أن العمال يحلمون بالعودة إلى قراهم ونجوعهم حتى لو كان القتل لبعضهم فى الانتظار. وكل منهم له حلمه الخاص بالعودة.. يرددونه علنًا. أو يهمون به فى ذواتهم.

رئيس الموقع يقابل (الرجل المهم جدًا) الذى يجلس فى غيظ وعلى عجل يريد أن ينهى مهمته سريعًا، وهى إخلاء الموقع فورًا، وتسريح العمال، ويخرج مجموعة استمارات تدل على (مشنقة) الشركة على عمال هذا الموقع الذى أصبح من وجهة نظرها غير اقتصادى ولم يعد يفيد الشركة الاستمارة بها (رغبات) العمال والعاملين، المعاش المبكر، أو النقل إلى مكان عمل آخر بالشركة، فى فروعها أو فى مقرها الرئيسى بالعاصمة، ومندوب الشركة يعطى العمال والعاملين ثلاثة أيام لانهاء ملء الاستمارات وابداء الرغبات لأنه بعد الأيام الثلاثة سوف تأتى عربات الشركة لنقلهم جميعًا وإغلاق المنجم.

مدير الموقع المهندس المقيم، كان قد اكتشف طرقا جديدة لاستخراج الخام. وعنده أمل فى الوصول إلى إنتاجية منجم أفضل ولكن أمام عرض الشركة يجد نفسه فى البداية - سعيدا جدا، فسوف يرى حبيبته مرة أخرى ويحاول معها من جديد لأنهاء مشاكل زواجه.

العمال يقابلون هذا الخبر - فى البداية - بسعادة غامرة ها قد تحقق لكل منهم حلمه فى العودة إلى العمار وإلى احضان أسرته وإلى بيته القديم وزرعه الأخضر.

أما أمين المخزن، فإنه لا يعرف ما إذا كان سعيدًا أم لا.. فهو لم يعد يعرف له بيتًا بعد أن جاء إلى هنا أيام الاحتلال وإنشاء شركة التعدين الأجنبية، ثم عاصر التأميم، وها هو يفاجأ بإنهاء العمل فى المنجم، وأن كانت عودته إلى العاصمة سوف تضمن لابنته فرصة زواج أفضل.

يقيم العمال حفلا بهذه المناسبة السعيدة وإن كانت فى قلوبهم (غصة) لا يدركون سببها.

فى اليوم التالى، يحاول بعض العمال ملء الاستمارات، ولكنهم يترددون، تثور المناقشات حول مقترحات الشركة، أما البعض الآخر فقد ذهب ليتفقد المكان الذى كان يعمل فيه طوال سنوات طويلة، ويتذكر العمال أنهم اطلقوا اسماءهم أو أسماء أحبائهم على معالم المكان، ويشعرون بالألفة تجاه هذه المعالم، بل إن بعضهم، وقد أطلق أسماء أولاده على الجبال والتلال المحيطة - يستشعر بالرغبة فى عدم مغادرة المكان.

يأتى (عم محمود) صائد السمك المقيم بمفرده على البحر بجوار الموقع، وصديق العمال، والذى يحمل إليهم السمك فى مقابل بعض الطعام، يبشرهم بأن حلمه قد قرب على التحقق لأنه يلمح رأس عروس البحر فى الفجر، وأنه تأكد من وجودها، كما رآها منذ عشرين عامًا يوم أن جاء إلى هذا المكان، وأنه يعشقها ويحبها وهى أيضًا تحبه حبًا خالصًا، وأنه لن يترك المكان مهما كان الأمر، لأن عروس البحر حبيبته ستعود إليه.

يتجمع العمال والعاملون فى المنجم من جديد، وقد بدأت تتبلور فكرة عدم العودة وعصيان أوامر الشركة، والبقاء فى الموقع.

يتم الاجماع على البقاء، على الرغم من تهديد مندوب الشركة بأن الشركة لم تعد مسئولة عن الموقع كله ولا عن العمال الذين سيبقون.

يتفق العمال مع المهندس على البقاء، بل ويتمسكون بالمكان، ويوقعون تعهدًا بإخلاء مسئولية الشركة عنهم وعن الموقع.

تعود السيارات بعدد قليل من سكان هذا التجمع ومعهم مندوب الشركة وعم أبونيه الذى يعدهم بالعودة - إن امكنه - إليهم.

صار العمال والعاملون أمام التحدى الذى قبلوه، وتبدأ مشاكل تشغيل المنجم، كما تبدأ مشكلات التموين والطعام وما إلى ذلك.

يقابل العمال هذا التحدى بصبر وشجاعة، مع وجود بعض المنازعات والخلافات، إلا أن العمل يسير أفضل مع

المهندس الذى أصبح طليق اليد فى اختيار طريقة البحث عن الخام.

ويقدم عم محمود اقتراحًا لحل أزمة الطعام على طريقته ويصنع العمال قاربًا، على أن يقوم فريق منهم بالصيد بالتناوب للحصول على السمك وعلى أطعمة أخرى من البحر، بل أن عم محمود يدلهم على أعشاب ونباتات تصلح كأغذية وأدوية بديلة يعرفها هو وقد جرب مفعولها كثيرًا، ويسعد هذا سكان التجمع.

ونرى صورًا من التعاون بين النساء، وتهبط زوجة (المعاون) و رئيس العمال إلى بيوت النساء لتعليمهن حرف الخياطة والتطريز واستبدال الملابس، وإعداد الأطعمة بشكل يتناسب والإمكانيات المتاحة.

تتخلل ذلك ثلاث قصص من الحب، بين إبنة أمين العهدة وابن رئيس العمال، وأخرى بين إبنة رئيس العمال وابن أحد العاملين، وثالثة بين فتاة من أسر العمال وشاب عامل، ولكنها قصص رومانسية تقابلها مشاكل المجتمع المغلق.

لدينا أيضــا، ابن رئيس العـمـال. وهو كان عـضــوا فى فريق كرة القدم التابع للشركة والذى يحلم باللعب فى أحد الاندية الكبري بالعـاصمة ولديه وعـد بذلك عندما لعب مع فريق الشركة مع هذا النادى الكبير.

الشركــة كانت قد أقــامت مدرسة صــغيرة لتـعليم أبناء العمــال على أن ترسل من ينهى الدراسة فيهــا إلى مدارس العاصــمة، وأيضــا ناديًا صغيــرًا للعمــال، وكل هذا أصبح مهددًا بالتوقف بعد قرار العمال البقاء.

بعد أن يتــغلب العمال على بعض المصــاعب التى تقابلهم فى العــمل والمصاعب الفــردية التى تقابل البــعض منهم أو التى لازالت تهددهم.. يحــضر مندوبون عن إحدى شــركات البــتـرول الذين يطالبــون بــإخــلاء الموقع كله لأنهم وفــقــا للاتفاق مع شركة التعدين قـد أخذوا حق الحفر فى المنطقة بما فيها موقع المنجم والتجمع، ويقــيم عمال شركة البترول بالفــعل خـيـمًــا لمعـسكرهم، وينـدفع بعض عــمــال المنجم ويحرقون تلك الخيام بليل.

تثور بقـوة مشكلة وجود هذا التـجمع العـمالى السكنى الذى لا يملك قـانونية وجـوده، لقـد أنهت شركـة التعـدين امتيازها للحفر فى الموقع واستغنت عنه وعن معداته وأقرت بحق شركة البترول التى تمسكت بحقها فى الحفر والعمال يرون أن حياتهم قد ارتبطت بالموقـع وأنهـم سيجدون الخام الذى يعوضـهم عن تعبـهم ويجعل الشـركة تعـترف – من جـديد – بهم وبأهمـية المنـجم – بل باقتـصـادية إقـامتـه ويواصل المهندس والعمال تحت ضغط هذه المشكلات العمل للوصـول إلى كـمـيات الخـام التى تثـبت وجـهـة نظرهم، ووجـودهم مع الأخـذ فى الاعـتبـار العـامل الإنسـانى فى تشبثهم بمكان أقامتهم.

ينجح المهندس فى الاتفاق مع مهندس البـترول فى عقد مهادنة بين الفـريقين، على أن موقـع العمل لشركـة البترول يسعى ليسمح بإنشاء أكثر من منطقة حفر بعيدة عن المنجم حتى يثبت وجود خام التعدين بكميات وفيرة.. وتنشأ علاقة صداقـة بين مـهندس البتـرول ومهندس المنجم، بل يظـهر

عمال البترول تعاطفهم بعد انهاء المشادات مع عمال المنجم، ويحاولون مساعدتهم. ولكن عمال المنجم يرفضون سعيا وراء إثبات حبهم للمكان.

يعود عم محمود معلنا فى سعادة، أن عروس البحر جاءت إليه ليلاً، وأنه سبح معها مسافة كبيرة، وتحدث إليها، وأنها أشارت إليه بما معناه قرب الفرج لعمال المنجم يعود عم أبونيه ومعه بعض الرسائل من الأهل، وبعض الأدوية، يقابله العمال بسعادة ولهفة، ولكن عم أبونيه يحمل لهم أيضًا خبر استياء الشركة من تحديهم وأيضًا خبر تحويل مهندس المنجم للتحقيق معه وإن كان عم أبونيه يحمل أيضًا خبرًا سارًا لابن رئيس العمال بأن مدرب فريق النادى الكبير بالعاصمة يستدعيه للاختبار تمهيدًا لضمه للفريق الأول، وأيضًا بإعطائه مسكنًا ومنحة جامعية إذا تخطى الاختبار، ويفرح ابن رئيس العمال، ويزداد تفاؤل سكان التجمع، كما يحمل عم أبونيه خطابات من أسر بعض العمال، خطابات بها لوم لمخالفة الشركة، وخطابات بها تشجيع للاستمرار.

يستعد ابن رئيس العمال للسفر إلى العاصمة، نشعر بـ
مسـافـر إلى (عـربة) وأنه داهب إلى (صـحـراء) ليصل
المهندس إلى عروق الخـام. تحدث مجموعـة حوادث يصاب
فيـها العـمال خـلال الحفـر نصيب هـذه الحوادث العـمال
بالدعر والخـوف وينسـرب إلى قلوبهم اليأس والرغـبة فى
ترك المكان. خلال هذا الجـو المشحون بـاليأس والأمل وقلة
الزاد والرغـبـة فى إثبـات الذات تـنمـو قـصص الحب بين
الشابات الثـلاث والشبان الثلاثة كمـا سلف - يصل أحد
أبناء الأسر الذى كان يبحث عن قاتل أبيه منذ زمن ويعرف
أخـيرًا أنه مـن ضمن عـمـال المنجم ولكن لا يعـرف شكله
يحاول أن يندس بـين العمال ليـعرفه، ولكـن القاتل وهو
برئ بالفعل يكتشف ويخاف ويحاول الهرب ولكن رئيس
العمال يمسك بالغريب الذى يعترف أنه جاء ليثأر لمقتل أبيه،
خلال هذا يكتـشف العمـال أن الأحداث المريبـة التى تحدث
فى داخل المنجم بفعل واحـد منهم. استأجره (الخـواجه) -
الذى كان يملك المنجم فى العهد السابق للتأميم ويرغب فى

هدمه على أســاس أنه المالك الحقـيقى ويرغب فى الانـتـقام ينتشر خبر (عروس البـحر) التى وجدها عم محمود. تصل بعثة من مـراكز الأبحاث العلميـة لتحقق معه خـبر عروس البحر.

أحد العلماء يبـدو متحمسًا مع عم محـمود الذى يحاول أن ينفى وجودها خوفًا من صيـدها وأخذها، يصل مع بعثة العلماء بعض رجـال الصحـافة. ينتشـر خبر العـمال الذين رفضوا مغادرته وظلوا يعـملون فيه، ترسل الشركة مندوبًا لتقييم إنتاجية المنجم.

يصل ابن رئيس العمال إلى نادى العـاصمه وينجح فى الاختبار ويصبح عـضوًا فى الفريق الأول وبالتالى يحصل على منحة الجامعة وعلى المسكن.

فى نفس الوقت يثور صراع جديد بين الشـركة والعمال بسبب رغبة الشركة فى إعادة ضم المنجم.

يزداد اهتمام العاصمة بموقع المنجم نتيجة الأخبار التى بدأت تنتشر حول المنجم، يصل المزيد من رجال الاعلام.

يسجل العالم المتحمس لعروس البحر رؤيته لها بالصورة لكى يصل المزيد من علماء مراكز الأبحاث والجامعات.

تزداد أعداد المقيمين فى الموقع مع اختلاف أنواعهم تنشأ مطاعم وخدمات جديدة يبتكرها أبناء العمال من الشباب لخدمة القادمين الجدد.

يسافر مهندس المنجم لعقد اتفاق مع الشركة على توريد الخام لصالح العمال - على أساس أن المنجم يديره العمال نفسهم وينفقون عليه وبالتالى يحصلون على أرباحهم من بيع الخام للشركة.

ابن رئيس العمال الذى أصبح لاعبًا بالنادى الكبير، يشعر بالغربة ويريد العودة على الرغم من الاغراءات، ولا تعجبه (دوشة المدينة) يتصل به مهندس المنجم ويقنعه بالبقاء فى المدينة حتى ينهى دراسته الجامعية.

تتصل خطيبة المهندس - السابقة - به لعودة الخطبة وتوافق على السفر معه إلى تلك المنطقة التى أصبحت

مشهـورة يرفض عم محمود والعالم الشاب، صـيد عروس البحر لفـحصها وتحنيطهـا فى أحد المتاحف، ويتفـقان على تهريبها بعيدًا، ليصل عدد من أعـضاء جمعية دولية لحماية الحيوانات وتبدى معاونتهـا للصياد حتى يتمكن من تهريب عروس البحر إلى مكان بعـيد، يصل عدد من السائحين إلى المنطقـة لرؤية عروس البحـر يبدى المزيد من المسـتثـمرين الرغبة فى استغلال المنجم والمناطق المحيطة.

يزداد رخاء المنطقـة، ويبدأ حفر العـديد من المناجم بينما توصل أحد العمال إلى منطقة بها خام الذهب.

يصل ابن رئيس العـمال وقـد أصبح لاعـبًا مـشهـورًا، وطالبا ناجحًا على الرغم من الصعوبات التى قابلته.

تتم خطبته إلى ابنة أمين العهـدة، يعود المهندس بعروسه ينجح الخواجة مالك المنجم الـسابق فى الحصول على حكم من المحكمة بإعادة المنجم.

يصل الخـواجـة لاسـتـلام المنجم، يرفض العـمـال فى اصرار ترك المنجم.

ينجح مهندسو البترول فى اكتشاف البترول، كما ينجح العالم الشاب وعم محمود فى إبعاد عروس البحر عن منطقة الصيد وتواقع معهم جمعية حماية الحيوانات مع ازدياد السياحة فى المنطقة خلال عرس ابن رئيس العمال وابنة أمين العهدة، يصل العامل الفنى الذى سبق وأعلن عن اكتشافه لمنجم جديد ليعلن نجاحه ومعه مجموعة من زملائه فى الكشف عن المعدن الجديد بكميات وفيرة، وينطلق المهندس و رئيس العمال ليتحقق أمل جديد للعمال مع تسليم المنجم الجديد تنفيذًا لحكم القضاء.

ينتقل العمال إلى المنجم الجديد.. ويجد الخواجة نفسه وحيدًا بدون عمال ويبدأ فى التفاوض مع العمال.

يصل العمال برئاسة المهندس إلى اتفاق مع الشركة لاستغلال المنجم الجديد بطريقتهم وهى المشاركة فى الإدارة والأرباح، كما ينجحون فى التفاوض مع الخواجة لتعويضه ماديًا ليترك المنجم ويرحل.

يبدأ المنجم فى الإنتاج مع وصول أول مولود جديد للعامل الشاب الذى تزوج من ابنة عامل آخر.

يصل إلى الموقع موظفان أحدهما يمثل السياحة والآخر يمثل المحافظة التابعة لها المنطقة ليتنازعا حول تبعية المنطقة التى أصبحت مشهورة ومنطقة رخاء بعد أن كانت مجرد جبل من الصخر، بينما العمال فرحون بأول إنتاج كبير من المنجم الجديد.. مع نافورة بئر بترولى اكتشفت حديثًا.

أهـــلاً

فى الامكان رصـــد حـركـة الرصـيـف الأوسط لمحطة سيدى جابر، عـشرة أفراد من الأجانب يرتدون البنطلونات القصـيرة، تبدو على وجوههم اللهـفة والترقب، صامـتون، يقفـون على شكل طابور، الحقـائب تبدو مـثل البط الأسود الراقد على جـسر الترعة اندس عتـريس وسط الأجانب، ثم دار حولهم، لم يحاول أحدهم اعـتراضه، وقف أمام أطولهم وراح يتأمله، ثم صاح.

– أهلا.

جاء القطار مـتسللا إلى محطة سيـدى جابر، وانصرف، راح يبتعـد فى تمهل، حتى اختفى، كـان الأجانب لا يزالون فى مكانهم، وكـان عـتريس قـد اخـتفى، بعـد قليل جـاءت مجـموعة من النساء الأجنـبيات ذوات شعـر أشقر قصـير، يرتدين البنطلون القـصيـر – ويكاد نصفهن العـلوى يبدو عاريًا وقفن فى طابور مقابل لطابور الرجال.

اقتربت منهن بائعة وصاحت فى غلظة:

– يا فتاح يا عليم!

لم تتحرك النسوة وكذلك فعل الرجال تواترت عدة قطارات مرت بالرصيفين الأيمن والأوسط، كانت قطارات تثير الغبار، ويتكدس عليها وحولها بشر كثير، وباعة ينادون بصوت عال، ثم جاء قطار جميل الشكل خفيف الحركة وتوقف عند الرصيف الأوسط، ظل واقفًا برهة ثم تسلل خارجًا، اختفى مع انحناءة التحويلة.

كان طابور الأطفال قد وقف بجوار طابور النساء الأجنبيات، الأطفال كانوا بصحة جيدة حمر الخدود، بضى الأجساد، ملابسهم ملونة بألوان زاهية، وفى أيديهم البسكويت الذى يلتهمونه فى شراهة، ولكنه لا ينفد، جاء عتريس وكأنه هبط من الفضاء وقال للأطفال.

- أهلا

عتريس يعرفه كل من يستخدم محطة سيدى جابر، وله أصدقاء من الركاب وأيضًا من موظفى المحطة، لا يتحدث كثيرًا، ولكنه دائمًا يشير إلى الجنوب، ظن بعض زبائن المحطة من أساتذة الجامعات الاقليمية الذين يستخدمون

القطارات كل يوم ويحملون بطاقات ركوب مخفضة، إنه مجنون، فكانوا يتجنبونه ولا يلقون إليه تحية الصباح كما يفعل بقية الركاب، اختفى عتريس كما جاء.

اختلطت طوابير الأجانب، وتكورت كل مجموعة فى حلقة، سيدة وطفل ورجل يمسك بالحقيبة، امتلأ الرصيف الأوسط عندما جاء القطار السريع الذى لا يتعامل مع البطاقات المخفضة ونزل منه عدد من الرجال والنساء الأجانب، الرجال يرتدون ملابس قصيرة فاقعة اللون، والنساء يرتدين ملابس داكنة تبدو خشنة ولم يقفوا مثل القدامى، إنما تحركوا فى كل اتجاه حتى صار الرصيف مكتظًا بهم، لم يستطع عتريس أن يندس بينهم، وقف على الرصيف الأيمن وأشار بيده مرحبًا وقال.

- أهلا

تمخطر ناظر المحطة وجاء ليقدم خدماته الجليلة لمجموعات الأجانب ولكنهم لم يعيروه اهتمامًا واضطر أن ينصرف، ولم ينس أن يلعن حظه العاثر الذى جعله ناظرًا

لهذه المحطة، اقترب منه عتريس وهمس إليه توت توت يا حضرة ناظر المحطة.

وزحف الأجانب وكانت فرصة لعتريس أن يذهب إلى هناك ليقول.

- أهلا

بدأ الركاب ينفضون، البعض منهم راح يتمتم ثائرا والآخر ابتسم فى سخرية، كان الجند يشكلون مستطيلاً محكما حول المحطة.

جاء طفل مع أمه الريفية، والتى ظهر أنها لا تعرف إلا ضرورة الإمساك بالقطار حتى لا يفوتها، وسأل الطفل فى براءة أحد الأجانب عن موعد قطار أمه لم يجبه الرجل، أعاد الطفل السؤال، ولكن الرجل كأنه لم يسمع، اغتاظ الطفل وقد رأى حال أمه الملهوفة وصمت الرجل هكذا، فضربه فى قدمه، صرخ الرجل الأجنبى وقد ازداد احمرار خديه، صاحت المرأة التى معه بلغة ركيكة فى الطفل، ازدادت ثورة الطفل الذى مع أمه وضرب قدم السيدة فى غلظة، صاح

الطفل الواقف بجوار السيدة التى ارتعشت رأسها من فرط الألم، وسب الطفل الذى ضرب السيدة، أو هكذا بان الكلام الذى تفوه به الطفل الأشقر، اقترب عتريس لكى يعتذر فى لباقة للرجل والسيدة وللطفل، ثم راح يهدد الطفل الذى مع أمه، وكان طفلاً قصيرًا أسمر اللون عليه ملابس باهتة وأمه ترتدى ملابس ريفية قديمة أيضًا وتحمل فى يدها كيسًا شفافًا بدت الأدوية الرخيصة تكاد تمزق الكيس من كثرتها.

نظر الطفل الأسمر إلى عتريس المبتسم وأشار إليه أن يقترب ثم بصق فى وجهه، اشتاط عتريس غضبًا وقرر إظهار أهميته، راح ينادى على موظفى المحطة، وعلى أفراد الجند بل ويحاول استمالة بعض الركاب الذين لم ينصرفوا من المحطة ولكن لم يستجب له أحد، ضحك الطفل الأسمر وقال لعتريس،

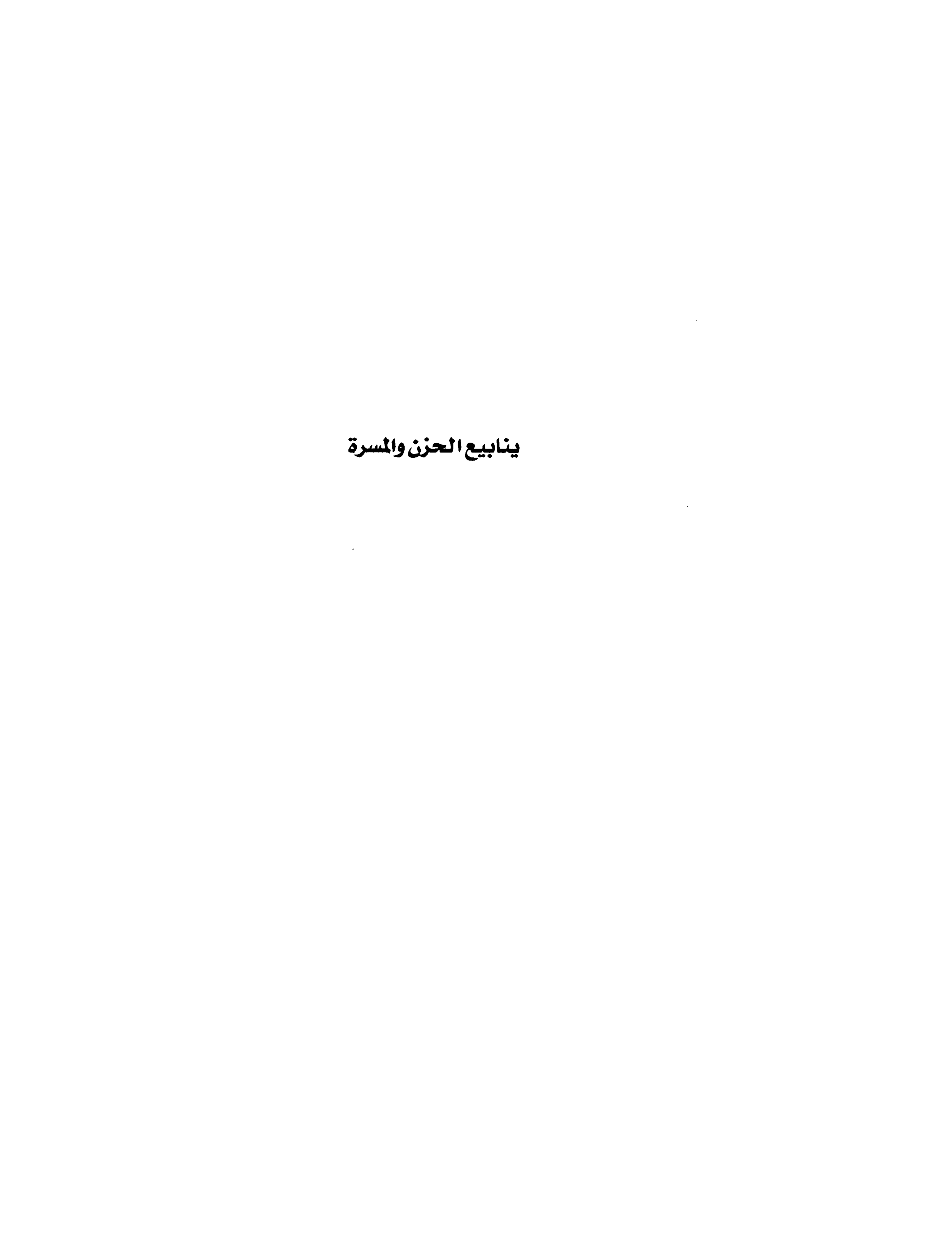
– اهلا

ازدادت حلقة الجند حول الرجال والسيدات والأطفال ذوى الشعر الأصفر والملابس الزاهية الألوان، جاء قطار

وتوقف أسرعت السيدة الريفية وهى تجذب طفلها ودخلت إحدى عرباته، وعندما انطلق قطار السيدة الريفية وطفلها، كان الرصيف الأوسط قد خلا من البشر، وكذلك الرصيف الأيمن، تلفت الركاب القلائل الذيم لم يغادروا المحطة إلى مكان الجند ولكنهم لم يجدوهم أيضًا.

جاءت القطارات ومضت، وظل عتريس يردد أهلاً بكل جماعة من الناس. ولكن الرصيف الأوسط ظل خاليًا..

١٩٩٩/٨/٢٥



ينابيع الحزن والمسرة

قال السائق :

ادفعوا السيارة بقوة

تسللت من خلف الركاب الذين راحوا يدفعون السيارة بكل حماس، سيدة تحاول أن تندس وسط الرجال لكى تشترك هى الأخرى مع بقية الركاب فى دفع السيارة، كانت تحمل سلة مغطاة بقطعة قماش، تخطيت شارع القصر العينى أصبحت الآن بجوار محطة البنزين، تلفت لأرى ماذا فعل ركاب السيارة الأجرة، رأيت أناسًا آخرين انضموا إلى الركاب لكى يدفعوا السيارة بقوة أكثر، لا أحب سيارات (اللى يحب النبى يزق)، ولكنى شعرت بالندم والخجل لاننى انسحبت، شعرت بالعار لأننى تسللت هكذا وتركت رفقاء السيارة الأجرة، ركبت معهم من موقف سيارات السرفيس بمحطة حلوان، تعودت منذ انفصلت عن زوجتى على هذا المشوار، لفت نظرى أننى أقف الآن أمام البقال الذى كنت اتعامل معه أنا وزوجتى، تذكرت حبى لطعام زوجتى - وقفت أمام عم حسن، اسأله عن الجبن الرومى، يبتسم الرجل ويقول:

لقد أخذت لك كمية كبيرة منها

- من؟

زوجتك، ألم ترها؟ أنهـا مضت منذ لحظة وقـد أخذت معـها الجبن الرومى والتـمر الذى يعجـبك وأيضًا اشـترت الزبادى بالتوم.

ابتسمت خجلاً قلت بعض العبارات، وخرجت من الدكان، لا أدرى لماذا دخلت، كـيف أذهب إلى عـملى وأنا احـمل أكياس المشتروات، ولماذا تشترى هى الزبادى بالتوم إنها لا تحب الزبادى مطلقًـا، وهل يعرف عم حسن أننا انـفصلنا؟ لماذا لم تخـبـره هى، ولماذا لم أخـبـره أنا.. سـألنى بهـجت زميلى عن الأوراق الهامة، قلت له يعد هناك ما يهم، الغريب أننا نستخدم كثيرًا كلمات التفضيل هذا حسن وذاك أحسن، وهذا مـهم وذاك أهم، لا يوجـد مـا هو مـهم ولا أهم، ولا يوجد ما هو أفضل، لا شئ أفضل من شئ. صاح بهجت.

- لقد فقدت عقلك بكل تأكيد.

ضحكت، لماذا بكل تأكيد، كيف تأكدهو من فقدانى لعقلى، قال فى غضب:

– كل الناس يتحدثون عنك.

كل الناس! يا ساتر كيف أحصاهم واستخلص هذه النتيجة الخطيرة، من أنا حتى يتحدث الناس عنى، جاء المدير نظر نحوى فى إشفاق، حاول أن يكون حنونًا، أنا أشعر به أكثر مما هو يشعر بى، كيف أكون قد فقدت عقلى وأنا أعرف كل تلك المشاعر، أنا أشفق على صديقى بهجت كما أشفق على سيادة المدير، تذكرت يوم زواج ابنته الوحيدة عندما جاء إلى مكتبى وأخذ يتحدث فى ألم عن كراهيته للشاب الذى سيأخذ ابنته، حاولت أن أواسيه ولكنه كان مصرًا على أن زوج ابنته رجل بغيض لأنه سيأخذ وحيدته، قال بانفعال شديد سوف اقتله، ثم راح يروى كيف جاءت وحيدته لتخبره أن زميلها يحبها، وأنها تميل إليه، ويسألان رأيه فى زواجهما قال لها يومها صارخًا أتحبين رجلاً آخر، أخبرته فى استخفاف.

وسأتزوجه يا أبى.

يومها، لم يعد ينام جيدا، لم يستطع مقاومة رغبة ابنته فى الزواج من هذا الرجل، الذى جاء إليه خجولاً ومتواضعًا يسأله الرضا، كان مهذبًا لدرجة أغاظته، وكان وسيمًا وشهمًا وكريمًا. لم يستطع رفضه، قال فى نفسه سوف أجد طريقة لابعاده عن وحيدته، لم يبتعد، واليوم جاء ليأخذها منه، وجاء هو إلى مكتبى لكى يخبرنى برغبته فى قتل زوج ابنته، وأخذته بعيدًا عن العمل، شربنا الشاى، وعندما جاء موعد الغداء أخذته إلى بيتى كنت أعرف أن زوجتى سوف تسعده بطعامها وحديثها أنها تجيدهما الطعام والحديث، ابتسم وودعنا وهو سعيد، لم أحدثه بعد ذلك عن زواج وحيدته، ولكنى كنت أراه دائمًا عبوسًا، يبتسم أحيانًا بحساب، لم يحاول أن يحادثنى على انفراد بعد ذلك، مضى إلى غرفته عاد بهجت يتكلم فى الأوراق الهامة، ثم قطع حديثه قائلاً.

- زوجتك بكت عندما حادثتنى هذا الصباح.

قلت فى برود.

- ولماذا.

قال وهو يتودد كعادته عندما يحاول أن يكون ظريفًا:

- أنها لا تزال تحبك.

ازداد غضبى من تلك السيدة، مـاذا يعرف زميلى بهجت عن الحب حتى تحادثه زوجتى السابقـة فى أمر حبها انه لا يعرف إلا المال، الفلوس عنده هى المحبـوب الأول وزوجته كـذلك، دائمًا يتـحـدثان عن الفلوس، ويصـادقان الأغنيـاء، ويتوددان إلى الأثرياء، فـاذا جلست إليهمـا لا أسمع إلا عن الأملاك والامـتلاك واكـتناز المال، قلت لزوجـتى هذا طريق الخسران.

قـالت فى ثقة: ومـالنا وهذا الطريق، أنت وحـدك كنزى، ومالـى وأملى وكل دنياى يومـها أمـسكت زوجتى بورقـة وكتبت عليها تنازلا بكل مـا تملك لى وحدى، وعندما حضر بعض الأصدقاء جـعلتهم شهودًا على هذا الـتنازل، ووقعوا ضاحكين، لم نكن ساعتها نملك شيئًا له قيمة، ضحكت وأنا أضمها بحنان قلت لها فى حب:

سأظل أحبك إلى نهاية عمرى.

قالت فى ثقة:

- إن حبى لك لا حدود له، وأحيانًا أشعر أننى أتضاءل بجوارك، وأظل حزينة.

قلت فى حماس الحب الذى احاطنى.

- بل أنت تاجى وعنوان وجودى.

قالت فى تلعثم.

- لم أقل هذا.. انه كذاب.

قلت ومرارة تملأ حلقى:

- من الذى يكذب يا سيدتى.. أنت أم هو بكت بشدة، راحت تقسم أنها لم تقل شيئًا له، ابتسمت والمرارة تغص حلقى، وقلت بصعوبة.

- لا أحد يعرف هذا الحديث إلا أنا وأنت فكيف عرفه هو.

مرة رابعة راحت تقسم، لم أصدقها، لقد دار هذا الحديث بينى وبينها فقط فكيف عرفت به أمى وأخواتى البنات

وامرأة عمى وزميلى بهجت.. وهو، جلست مهدودا، تذكرت الحب الذى كان، والكلمات التى كانت وعبير زهور الليمون فى حديقة العمدة، وأزيز طائرة ونحن متشابكا الأيدى والقلوب عيناها ترفعانى فى حب، وقلبى يهفو إليها... والكلمة الرديئة تندفع من فمها.

– أريد الطلاق.

بعد كل هذا الحب.. وجاء إلى مكتبى، لم أصدق أنه جاء لمناقشتى فى أمر الأوراق الهامة، راح يلوك الكلمات وكأنما يأكلها قبل أن يلفظها.. ثم وقف وهو يقول.

– طلقها.

لم أكن شجاعًا كى اسأله – لماذا يقول هذا. وما دخله هو، كنت خائفًا، تسللت إلى شارع القصر العينى دخلت دكان عم حسن، اشتريت أشياء عديدة، وضعها الرجل فى حقيبة ورقية، كان يتحدث عن أبيها.

– تصور لقد زار الهند والسند، وتعلم فى انجلترا ومع هذا ظل متواضعًا.

دفعت إليـه بالنقود، كنت أود أن أخبـره بالأمر، ترددت، قال وهو يبتسم.

- سوف ارسل الـغلام بالأشيـاء إلى البيـت، حاولت أن أقول له لقد انفصلنا، ولكنى قلت فى اصرار:

- سوف أحملها أنا.. لا داعى للغلام. وامسكت بالحقيبة الورقية، خرجت إلى الشـارع، لم أعد مدركًا كل الإدراك ما يدور حـولى، أحسـست بالرغـبـة فى السيـر على قـدمى، الشوارع ملتـوية ومتقاطعـة، ولكنى على معرفة بـها، أكاد أسـيـر فى هذا الحى مـغـمض العـينين، قـال بهـجت أننى محظوظ، ضحكت دفعنى إلى العراك مع المدير، ساءت على إثرها العلاقـة بينى وبين المدير الذى كتب مذكـرة بضرورة فصلى من العمل، لم أعرف لمـاذا فعل بهجت هذا، لم أحاول أن أناقـشـه، قـررت أن اتعلم مـن هذا الدرس، فى المسـاء اصطحبت زوجتى لزيارة صـديقتها الحمـيمة جلست طوال الزيارة وأنا اسـتمع لقـصص الثراء الذى حـدث لاصدقـاء اصدقائى، حاولت أن أشـغل تفكيرى بالبحث عن الصلة بين

العشق والشقاء، اكتشفت أن الشعوب أحيانًا تسقط فى ينابيع الحزن، ووجدت أن الشعب والعشق والشقاء كلمات متشابهة، عندما عدت إلى المنزل، كانت زوجتى حزينة، لم أحاول الدخول معها فى مناقشة أين ذهب العشق. ولماذا حل الشقاء بنا؟

قالت: اخطأت فى حقك، اغفر لى، ردنى إليك.

قلت: هذا الطعام لمن أعد.

قالت: فى براءة

لك يا حبيبى

اصطدمت الكلمة بأذنى ولم تدخل، لم أسمعها منذ وقت طويل، عندما نزلت حلوان سألتنى صاحبة البيت عن الهانم، رأتنى مذعورًا، قالت ضاحكة هربت منك أم أنت الذى هربت، قلت أين حجرتى، دفعتنى بغيظ إلى الداخل، لم أشعر بالراحة، ولكنى لم أقل شيئًا، دفعت إليها بمفتاح البيت، بكت، توسلت، ركعت تقبل قدمى، أخذت سجادتى، وعلبة الدواء، وخرجت وهى تحاول التشبث بملابسى،

سألتنى صاحبة البيت؛ وأين ملابسك؟ قلت لها سأرسل فى أخذها بعد عدة أيام - جلست أنظر إلى الطعام، زوجتى تجيد اعداد الطعام والحديث، لم تحادثنى، قدمت إلى الطعام، كان كما تعودت، رائحة زكية، ولكنه بكميات وفيرة عدت اسأل وأنا أنظر إلى الطعام باشتهاء.

- ولكنه كثير

قالت وهى تحسس الحقيبة الو رقية

- قال لك عم حسن

قلت فى بلادة

- لقد باعك جبنا روميا وزبادى بالتوم.

قالت وهى تجلس أمامى فى استرخاء الانثى التى تشعر بميل شديد لذكرها

- لكى أصنع لك كعكة البطاطا التى تحبها.

صمت وأنا أقف مهتاجًا:

- وكيف علمتِ أننى سوف أحضر لم ترد، حاولت أن تعتدل ولكنها لم تفعل، يبدو أنها استراحت لجلستها هذه،

ربما لاحظت نظراتى، لم أعهدها ذكية، ولكن هى فى النهاية أنثى، درت حول مائدة الطعام دورة كاملة، تذكرت البقرة التى تدور فى ساقية عم عباس الجناينى - سألت نفسى ذات مرة ما الذى يجبرها على الدوران هكذا دون توقف لم أصل إلى إجابة، وقفت واجلستنى على مقعدى المفضل، وضعت فى طبقى الطعام، جلست بجوارى وراحت تقص أخبار الجيران - توتو رسب فى امتحان وزارة الخارجية، ضحكة كيف لهذا (التوتو) أن يكون سفيرًا.

قالت أن (طنط) زيزى قررت السفر إلى الحجاز وأنها اشترت ملابس الحج من عند نرمين، وأن عم عبده البواب قرر زيارة زوجاته الأربع يوم الخميس القادم وإنها أعطته بعض النقود، وأن الولد الشقى ابن الجيران تسبب فى مشكلة مع أجهزة الأمن بعد ترك حقيبة المدرسة أمام شقة سعادة السفير، وأنهم ظلوا فى حالة تأهب حتى تأكدوا من ملكيته لحقيبة المدرسة، وأن.. صحت مقاطعًا

- لمن هذا الطعام.

قالت فى خوف ظاهر.

- لك يا حبة عينى

قلت وأنا أتلهف لضربها.

- لقد انفصلنا يا سيدتى. فكيف علمت أننى سأعود.

قالت فى ثقة.

- قلبى هو الذى أخبرنى.

درت حولها، بهجت همس فى أذنى أول أمس أنها اتصلت به ترجوه أن يقدم لها عونًا لدخولها المستشفى، بهجت نصحنى أن أفعل هذا بدلاً منه، لا أدرى لماذا قال لى ذلك، ذهبت إلى المدير لكى يوافق على طلب سلفة مالية، وافق الرجل ولم يسألنى عن السبب، هو يعلم أننى لا أواجه مشكلة مالية وأننى أنا وزوجتى متيسران، ومع هذا وافق على السلفة، قلت لها فى غيظ.

- بل هذا الطعام قد أعد له وليس لى.

صرخت فى جزع واضح:

- ماذا تقول.. من هو الذى اعددت له الطعام غيرك.

تنبهت إلى موقفى، انها زوجتى السابقة، نحن منفصلان فكيف أحاسبها الآن، بل والاهم كيف سمحت لنفسى بالحضور إلى بيتها.. لسعتنى الكلمة (بيتها) هل أصبح بيتها هى، وليس بيتى، وليس بيتنا؟، دفعتنى فى غضب مدلل إلى غرفتى، تولت خلع ملابسى، تحسست الجرح الذى فى صدرى قالت فى دلال.

– أخيرًا.. رأيت آثار جرحك.

أسرعت وارتديت جلبابى الأبيض، ضحكت وهى تقول.

– بدون جلباب أفضل لاننى أعددت لك حمامك الدافئ.

وشعرت بالماء الساخن يتدفق إلى مسام جسدى، وابتسمت وأنا أحكى لها كيف تركتهم يدفعون السيارة الأجرة التى (زرجنت) ولم تتحرك، راحت هى تحك جسدى بقطعة من الأسفنج.. فى الصباح قلت لها فى غضب: ألف مرة أمرتك أن يكون شاى الصباح خفيفًا.

صاحت وهى تكمل ارتداء ملابسها.

– وقتى ضيق.. اصنع أنت بنفسك الشاى الذى يعجبك.

قلت وكأننى اردد نشيد الصباح اليومى.

- وطعام الافطار.. هل أعده أيضاً بنفسي.

قالت وهى تغلق باب الشقة دونها.

- سوف أحضر مبكرًا اليوم.

ساد الصمت... تمددت بطول الفراش، وتذكـرت صاحبة البـيت فى حلوان، والسيـارة الأجـرة التى توقفت.. ووجـه المدير العـابس، ثم ضحكة سـاخـرة من زميلى بهـجت.. ثم صوتًا نسائيًا.. ناعمًا يقول.

- ألم نقل لك أنك لن تستطيع منا فكاكا.

اندفعت إلى ملابس ارتديهـا، وخرجت إلى الشارع لعلى اشترك فى دفع سيارة متعطلة.

أولدكورت – لندن

١٩٩٥/١٠/٢٢



والناس مثل حبات المطر



رأيت فيما يرى النائم أنى ثعبان. وعندما نظرت إلى المرآة وجدت شخصًا آخر، كان ينظر نحوى فى شراسة، وكنت خائفًا، وصحوت.. ناديت على زوجتى فلم ترد، قلت أيهما كان الحلم!

على مائدة الطعام وجدته واقفًا، ثم مضى، قالت زوجتى أنها ترغب فى طهو السمك، ذهبت لاصطاد السمك، اقتربت من الشارع، رأيته مستندًا على الحائط، تشاغل عنى، كنت أود أن اسأله، ولكنى تراجعت، بعض الخوف تسلل إلى قلبى، قلت لنفسى يجب أن أكون شجاعًا، قرأت فى احدى الروايات عن الفتوات، أنا فتوة درب الغلابة، اعتدل، ونظر نحوى، عدت إلى البيت، جلست أنظف قدمى اليمنى، كلمات زوجتى تصطك برأسى، لا أسمع شيئًا، قلت يجب أن أكون سيدًا، الرجل هو السيد، ذهبت إليه، قلت لماذا تقف فى طريقى؟ لم يجب، تركنى ومضى، قذفنى طفل بكرة ملونة، انحنيت عليها ولكنه كان أسرع منى، أخذها وهو يصفعنى بسبابه، ابتسمت ورأيت أن قدحا من الشاى مع صديقى

الودود سوف ينسينى الأمر كله، وعندما شربت الشاى تذكرت..

أمى قالت أن الرجل جاء يطلب ثمن الجاموسة، قلت وهل اشتريناها منه؟ قالت: أنت الآن رجل ويجب أن تفهم، قلت الجاموسة ملكنا أليس كذلك يا أمى،.. لم تقل شيئًا أعطته قرطها الذهبى، ظلت الجاموسة فى بيتنا، وأمى تنظر إلى وجهى فى ألم، تعمدت أن أحطم قطعة الخشب التى كانت تستند إلى جدار دارنا وقفزت من النافذة وذهبت إلى البندر وتشاجرت مع أول رجل قابلنى، وعندما أمسكوا بى رأيت عيون أمى، كانت مبللة بالدمع، نمت نومًا متقطعًا، زارنى الثعبان ثم الأسد ذو العين الواحدة، وعند الفجر رأيت دارنا تسبح فى النيل..

وقفت مرصوصًا فى أول صف، كان الامام يتلو بنبرات شجية، والبرد اللاذع يلسعنى، ترتجف أذناى، ارتعد، ارتجف،.. وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.. ابكى ألوذ بك يا رب، اقترب من عرشك،.. ألا بذكر الله

تطمئن القلوب، واحد أحـد، غفار الذنوب، لم أكن أعرف، بل كنت اعرف، قال الرجل وهو يدفعـنى نحوها، انها لك افعل بها فعل الرجال فى النساء، اندقت قدمى فى أرض الحوش، أنثنت الأخرى ساقطة على الأرض،.. رأيت نفسى محلقًا، لم يدم الأمر، عـدت جريًا إلى دارى،.. وفى الصـباح كنت أول من ذهب إلى الجـامع، أخـذت أدفع الماء إلى الخـزان حـتى امتلأ، اغتسلت واغتسلت، ووقفت جاء الناس، رجال أقوياء، وقـفوا خـلفى، وعندمـا انحنيت فـعلوا مـثلى - بكيت.. أنا الزنديق: الآثم، أنـا الملعـون المطرود، لا تحـملـونى ذنوبكم كفانى ما فعلت.. فـى الليلة التالية ذهبت، أبعدنى الرجل فى خـبث، سـاومنى، ودفـعت ثمن حـمـارنا، وارتميت عليـهـا وعـرفت مـعنى العـشق.. فلمـا ذاقـا الشجـرة بدت لهـمـا سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة..

يا أمى.. لن ينفع الندم، الرجل يقف على ناصية الحارة، وعلى جدار الدار، ويجلس فوق أرنبة انفى، أتمدد ليلاً حتى أصيـر ثعبـانًا يأكلنى، وتدور المرأة من حولى، تحـاصرنى،

ترقص على أوراقى وبين عيدان القمح، وتصعد فوق المنبر، تنادينى هيا اقترب، خذنى. اندفع نحو السراب، إقبض ريح المعشوقة، يا أمى أنا مجنون، صدقينى أنا لست عاشقًا، أنا المعطوب فى عقلى، وقلبى، ولسانى يهذى،.. ابتعد كى أحبك يا أمى.. ابتعد كى لا يأكلك الرجل الذى أكلنى.

والأرض الباردة، ونافذة مفتوحة، والبطن الجائعة، قسما انى ثعبان رأيتنى مرارًا، وأمسكتنى، وقتلتنى، ثم عدت ثانية ودرت حول النافذة. الضوء يشدنى،.. وحلم قديم، أنا الملك المتوج على عرش البرسيم، أشير إلى عيدانى أن تمدد كى أرقد وأنام، وعندما أصحو أحصد قمحًا، لماذا لم اتعلم كيف تحصد السنابل، والعناقيد، والقنابل، ولم أتعلم كيف أرقص منبوحًا أمام الرجل الواقف فوق أرنبة أنفى، وأنى يا أمى أشهد أن اليوم الذى مضى لن يعود وأن الأيام التى ولت ذهبت دون رجعة، ولكنى يا أمى، أومن أيضًا أن الله موجود، وأنه الجبار، لهذا يا أمى ذهبت إلى هناك.

قالت فى دلال:

- اليوم حرام فيه الحب.

ضحكت، وقلت فــى نفسى، هكذا كنا نقول عـندما تعلن سينـما الأهلى أنهـا تبدأ عرضًـا جديدًا، يذوب العـاشق فى المعشوق، نلتـصق بمقاعدنا الخشـبية ونحن نرى «طرزان» يصـرخ فى الغابة، ويـقفـز فى مهـارة، ويداعب الغـوريللا ويضحك مع الأسد. ولكنه يخاف من الفأر، أنا أيضًا أخاف من الفأر... رأيته واقفًا خلف زجـاج النافذة وعندما اقتربت لم يبتعد، ظل يواجــهنى بأنفه المدبب وشواربه الطويلة، قلت مع زملائى:

- اليوم حرام فيه العلم.

ورسبنا ومضينا نجوب الشوارع - نتلصص على نوافذ المتـاجر، وسـيـقـان السيـدات، وكل منا يحلم بـالسيـارة. والسلطة والامارة، حتى جاءت السيارة وحملتنا نحو الغابة، وهناك..

رأيت الرجل أول مرة.

بل رأيت الرجل الذى كنت قد رأيته، لو تذكرت أين رأيته أول مرة، لتشجعت واخترقت الحارة ووصلت إلى الميدان وابتعت لزوجته الطعام، ولكنى، يا أمى، لا أتذكر، وكلما رأيته حسبتنى أراه لأول مرة.. هكذا سعيت إليه، وجلست أمامه، ووضعت يدى اليمنى على ركبته اليسرى ووضعت يدى اليسرى على ركبته اليمنى وقلت:

- اسمع يا رجل..

ولكنه لم يسمع، قفز واقفًا، تدحرجت وارتميت على ظهرى، ثم أخذت فى البكاء، لا ليس البكاء إنما انتابتنى نوبة سعال وشعرت بالألم فى صدرى، وحذاء الرجل فوق بطن امتلأت بالغضب، وفى رأس اشتعل اللهب، وقررت أن أضربه.

فى السوق، ساعدتنى امرأة قالت أن الرجال لا يفهمون فى مسائل الطعام، ولا يحسنون إلا الالتهام، ووضعت كيس الأرز بجوار كيس الرمان. وأبعدت الدجاجة عن رزمة الخضار وغطت الأكياس بحزمة الجرجير، وقالت وهى تحملنى الأكياس على كتفى:

حتى لا يحسدك الناس.

مشيت مترنحًا من ثقل الاكياس، وعيناى ترقبان الرجل، قلت ماذا أفعل إذا ما أخذ منى السلال كلها، هل أصرخ، الناس حولى مثل حبات المطر، يتساقطون، يتسللون، يجرون، ينزلقون، يهرعون نحو الحفر، أما الخفر فلا أحد منهم يهتم ولا هم يتواجدون، هل أسكت وأمضى صامتًا، هل أضرب الرجل وأبعثر السلال والأكياس فوق رأسه.. أمى لست شجاعًا حتى اعترف بعجزى، ولكنى اتظاهر بالغباء لعله يحمينى من الأقوياء، أو على الأقل يبعد الأذكياء عنى واهرب أنا بغبائى الظاهر وعجزى الباطن إلى صحراء الاحلام وهناك افتش عن ملابس أبى، لا أجدها، أصرخ، أبكى، أتوسل إلى عمى، كل الناس صاروا أعمامى وأخوالى وعماتى وخالاتى، وأبحث عن أبى، عن ظله، عن رائحته، عن كفه الممدود بالحلوى.. عن ضحكته، عنه كله - لا أجده بين الناس، والناس مثل حبات المطر فى شتاء عاصف، اتزحلق - أكاد اسقط اتماسك أرقب الرجل - اتسلل عبر الحارات الجانبية.

١٩٩٥/٤/٢٥



شمس و.. القاذفة ٢٤١٠٠

شمس، كان والده شيخ طريقة صوفية. أصغرنا سنًا وأكثرنا مرحا ماهر فى صياغة القفشات المضحكة، لم نتخيله مطلقًا بالملابس العسكرية دفعوا بنا إلى معسكر بالمنطقة الجنوبية، وكان شقيقى يقود الدبابة (الماز) فى رأس العش، وأكبرنا (سعد) أحد قادة سلاح الاشارة، يدخن بشراهة ويتذكر والده الذى مات وهو يحبو نحو الخامسة، لا يتكلم كثيرًا، كنا نذهب إليه ونجلس لكى نلتمس عنده بعض الراحة قال:

– لا أستطيع أن أوصى لكم باجازة.

قال محمد عبد العزيز أنه وعد أمه بزيارة، وأن أخواته البنات فى انتظاره، قال سعد فى اقتضاب:

– اشربوا الشاى وانصرفوا.

لم نكن نناقشه، إنه برتبة عليا ونحن لازلنا فى بداية الطريق، ولولا القرابة ما جلسنا إليه هذا المجلس، وهو يعطى القرابة قدرها، ويعطى الأوامر – أيضًا حقها – انصرفنا ومحمد عبد العزيز يبكى، تقابلنا مع شمس، كان يرتدى ملابسه العسكرية، قال.

- انهم يعطوننا كل يوم كيلو لحمة وكمية كبيرة من الفاكهة تذكر محمد عبد العزيز العدس، فقال فى غيظ، متناسيًا البكاء على الأجازة التى كان ينتظرها:

- ونحن نأكل الشوربة كل يوم.. شوربة عدس.

ضحكنا وضحك شمس، كنا نعلم انها إحدى قفشاته، قال شمس فى حماس.

- نجلس فى الاستراحة ونشرب عصير المانجو.

تحمس الصحاب، واندفعنا نحو الاستراحة، وأسرع شمس باحضار أكواب العصير، تلمظ محمد عبد العزيز وهو يرى عصير المانجو يبرق فى الأكواب تحت ضوء الشمس، اختطف لنفسه كوبًا، وسارع الجميع ورفعوا الأكواب فى عجل، ما كادوا يرتشفون أول رشفة، حتى ارتدت أيديهم وراحوا يبصقون، وانطلق محمد عبد العزيز نحو شمس الذى كان يضحك فى مرح صبيانى بعد أن دس الملح فى شراب المانجو.

فى الصباح أخبرونا أن المنتظر قد حان، وأن الحلم على وشك التحقق، دفعنا الأمل نحو السد الترابى، ركبنا زوارق

الانتقام. نسينا كل شئ وزرعنا العلم، وتقد منا، ومضت الأيام لا نحصى لها عدا، وانفلق الطريق أمامنا وخلفنا وحفرنا ابار الماء العذب وشربنا، قال سعد فى جلسة جمعتنا به، وصوت مكبر الصوت يزعق بالعبرية، قال:

- لا أدرى كيف حال زوجتى الآن.

رد محمد عبد العزيز بسرعة:

- من المؤكد أنها وضعت طفلها الشهر الماضى وكأن ما يقوله محمد عبد العزيز عن علم، راح سعد قائدنا يسأله عن شكل الطفل، وعن لون عينيه ما إذا كانوا أقرب إلى لون عينى جده أم عينى أمه، ومحمد عبد العزيز يجيب بما يخطر على باله. ردد مكبر الصوت عدة نداءات بذيئة بالعبرية، اندفع محمد عبد العزيز نحو مصدر الصوت ولم يعد إلا بعد أن أسكته، ثم راح يكمل وصف طفل سعد المولود منذ شهر، وعاودنا الحنين إلى بيوتنا، وساد الصمت.

فى الصباح جاء نفر من الأصدقاء وقالوا:

- نريد أن نبنى مسجدًا.

تحمسنا، وبنينا المسجد بالأحجار وجعلناه فى مكان مرتفع وأقمنا فيه صلاة الجمعة، فى المساء قررنا التسلل إلى معسكرهم، كانت هذه هى المرة... لم نعد نتذكر عدد مرات التسلل، فاجأنى القائد سعد باستدعاء سريع، قال ان القيادة غير راضية عن تسللنا إلى معسكر الاعداء وقال انه كان يعلم بموعد العبور قبل موعده بليلة كاملة، وأنه كان متشوقًا لرؤية زوجته، ومنع نفسه عن الاتصال بها، كان قائدًا لسلاح الاشارة، أمر بمنع الاتصال التليفونى قص علينا كيف كان يذهب فى ساعات من الليل أو النهار لغرفة القيادة العامة ومعه ملف العمليات الخاصة بسلاحه وعليه أن يتلو غيبًا دوره ودور سلاحه فى المعركة أمام الرئيس، صارت هذه عادة، تمنى أن يتخلص منها بتنفيذ دوره والانتهاء منه، سأله محمد عبد العزيز الذى كان قبل الثغرة يعمل بمكتب رئيس الأركان؛ وهل قمت بتنفيذ دورك يا سيادة القائد؟، ضحكنا، لا ندرى كيف ولماذا، أفقنا على نظرة سعد الشاردة، تبادلنا نظرات التأنيب، كان وجه محمد

عبـد العزيز جـامدًا ينظر إلى سـعد فى انتظار الإجـابة، لم يجب سعد، قال محمد عبد العزيز فى حدة:

– ولماذا نحن هنا، لماذا هذا الحصار؟

قال سعد، وصلة الرحم تجعله أقل عنفًا:

– كلنا قمنا بأدوارنا ولهذا حدث ما تسمونه حصارًا.

روى لنا سعد، الذى يجلس الآن فى بيته الصغير بقريتنا يضـحك فى سعـادة وهو ينظر إلى حفـيده مـصطفى وهو يحاول مداعبة عجل صـغير، والعجل يرفض المداعبة، روى لنا وقتـها أين كان طوال سنـوات العذاب، يقصـد التدريب، وكـيف كان يمشى على قـدميـه عشـرات الأميـال من أجل الاشراف على عمليات كتائبـه، وذات مرة قابل سيدتين وقد هدهما عطـل السيارة، وكـيف ساعدهمـا حتى أصلح لهـما العطل، وقالت إحداهما:

– هل أنت حقًا ضابط مهم.

ضحكنا وقـررنا زيادة عدد مـرات التسلل إلى مـعسكر الاعـداء، سألـناه عن شمـس، أطرق برأسه، سـاد الوجـوم، وفجأة صاح أحدنا مشيرًا إلى السماء.

شمس.

كانت النسر الصغيرة تمرق فوق معسكرنا، أخذنا نشير إليه وننادى، دار النسر دورة كاملة، وفى الدورة الثانية كان يطن فوق رؤوسنا تمامًا، تساقطت علينا أكياس منتفخة من قماش، اندفعنا نحوها، كانت ورقة ترف فى الهواء، تتمايل، تتأرجح، قفزنا نحوها قرأنا فى صوت واحد (٢٤١٠٠ شـممس)، جرينا نحو النسر الذى اندفع نحو خص أبويا سيد أحمد القابع بجوار النيل، ابتعد، امسكنا بالورقة، وراح كل منا يأخذ منها قطعة ويضمها إلى صدره، أبقينا الجزء الذى عليه رسم الاسم وناولناه لسعد، احتضن الاسم، احتضن الورقة، سقطت دمعتان، قال:

- احملوا هداياه إلى بقية الرفاق.

ضحكنا ونحن نحفر بئر الماء، ورأينا رقرقة الماء الحلو وشربنا، كانت البئر المائة، اطلقنا على البئر (شمس) صار شمس بعد ذلك الطيار الخاص للرئيس السادات، وعندما كان بعضنا تحت العلاج فى لندن وزارهم سعد عرض عليهم الأوسمة التى نالها. وعندما عاد سألناه.

لماذا كان الصوت القادم بالعبرية يناديك أنت ويحدد مكان سكنك.

قال وهو يتأملنا:

- لم تضف هذه الأوسمة إلى عقولكم شيئًا.

علمنا أن صاحب الصوت كان مقيمًا فى (حارة حلال عليه) حيث كان يقيم سعد خلال دراسته الثانوية، وكانا أصدقاء وزملاء فصل واحد، حتى هاجر صاحب الصوت ولم يعد يسمع عنه إلا فى زمن الحصار، وقال سعد.

- ألم يلاحظ أحدكم شيئًا على صوته.

أجاب محمد عبد العزيز:

- الحزن، كان صوتًا حزينًا يشكو.

قال سعد:

- لهذا كنت أكلمه، لأنى كنت أعلم أنهم أشد بؤسًا وعذابًا وقهرًا مما يظهرون ولم نكن فى حصار بل كانوا هم فى حصار أقوى.

صدرت إلينا الأوامر أن نصنع ممرا يربطنا ببقية القوات، ونجحنا، عاد شمس يهدينا المزيد من الخطابات والمجلات والحلوى والأدوية، وورقة عليها اسمه... ذهبنا إلى أسوان ووقفنا بجوار تمثال ضخم قالوا هذا رمسيس، ضحك شمس وقال:

- وأين باب الحديد.

سعل المرشد، وقال: لن تفلحوا أبدًا

وصفنا المرشد العجوز بعدة صفات غير طيبة وأنهى شرحه بأننا لا نعرف اسم بلدنا ولا نحترم تاريخنا، تخصص زكى متولى فى تاريخ عصر الرعامسة، وكان يقص علينا أيام الحصار قصصًا مبهرة عن انتصارات ملوك ذلك العصر، وكان يحكى لنا قصص المعارك كما يحكى الراوى الشعبى قصص (خضرة والنعمان)، كما اشتغل نور إبراهيم مستشارًا سياحيًا. وظللنا نضحك على سؤال شمس (وأين باب الحديد)، وسمعنا صوت الرجل بالعبرية يستغيث، كان يطلب نجدة سعد ويذكره يوم أن

أنقذه من الغرق فى عين الصيرة، وكنا ننظر إلى سعد وهو يستمع إلى ذلك الصوت، كان حزينًا، باكيًا..

هزنا محمد عبد العزيز بخبر زواجه، وذهبنا إلى داره والزغاريد تختلط بغناء عذارى القرية، ورقصنا فى حلقة ونحن متشابكو الأيدى، تهزنا النشوة ونحن نردد.

- شمس.. شمس

وسمعنا من خلفنا من يقول.

- والقاذفة ٢٤١٠٠

دقت طبول العرس، ازدادت حدة الرقص، ذهب شمس إلى العريس محمد عبد العزيز، وهو قابع فى مقعده المذهب وسأله:

- وأين باب الحديد.

٥/٩/١٩٩٩ - الحياة

كباب وكفتة

سبحـان الله كانت جميلة جـمالاً مبهرًا، دون مـساحيق، ودون تزويق، فى جلبـابـها الـواسع، وضـفـائرها المرسلة وراءها فى فـوضـى محـببـة تزيدها جـمالاً، ولكن مـا تكاد تنطق بكلمة هات حتى يذهب جمـالها وأغمض عينى حتى لا أراها قـبيـحة، كنت مـدينًا لهـا بمبلغ من المال عجـزت عن سداده، وحاولت هى من جانبهـا استغلال هذا الفلس المالى الذى لا يرغب فى تـركى، فـراحت كل يوم تطـالبنى، هات، وأنا ولها كتبى فتـقلب فيها ثم تزوم وتقول: لا تكفى. ولكن لى مـعك فى الغـد حـسـاب، وأسمع صـوتهـا فى الحـارة مجـلجلاً، بيكيـا، فكرت ذات مرة أن أعـرض عليهـا الزواج ولكنى تراجعت، كيف أواجه أمى بـزواجى من حسنية بائعة (الروبا بيكيا) فى حارة اللبان، وكيف أواجه بها زملائى فى الجامـعة، أخبـرنى الأستاذ أن مـناقشتى قـد تحددت وأنه يعمل على أخذ المـوافقة النهائية، بعـدها سأحمل لقبًـا علميًا كبيـرًا وبدلاً من الأستاذ عادل ستناديني حـسنية وتقول يا دكتـور عادل اتخـيلها الآن وهى تمط كلمة دكـتور، أحـيانًا

ترددها وتنطق الواو على دفعات، منغمة، ثم تقول: هات، أعطيتها معظم كتبى وملابسى، ومع هذا تقول: هات.

اليوم جاءت عابسة الوجه، لم تقل هات، بل جلست على عتبة باب الغرفة التى أسكنها فوق السطوح، مهمومة، عقلها مشغول، ولكنها قطعة سكر، بل أكثر، سكوتها، صمتها، اطباقة شفتيها، أتأملها، أتذكر جميلة الجميلات، نفرتيتى، نعم هى، سمارها الساحر الذى مر على وجهها مرورًا خفيفًا، دقة تكوين الأنف والأذن اتساع عينيها، رموش العينين تنتفض بسرعة، تقف وهى تبحلق فى وجهى، خشيت أن تخرجنى من حالة الوله التى أعيشها مع وجهها وتقول هات، لم يعد عندى شيئًا، أخبرنى الأستاذ أن مناقشتى الشهر القادم وإنه سيخبرنى رسميًا حتى استعد، قال بعدها سوف أحارب من أجل تعيينك، قلت متظاهرًا بالرضا المهم انتهاء المناقشة على خير، قال وهو يضربنى بكف يده على ظهرى: سوف نرى يا بطل.

بطل ولكنه مـديون لحسنيـة، اسـتحلفك بالله ألا تقـولى هات. قالت: كـنت عنده اليوم ولهـذا فكرت، قلت (مقـاطعًا) من هو؟. قـالت: لا تقـاطعنى دعنى أحكى لك، جلست ثانيـة بالقرب من الباب وقد جمعت جلبابها حول جسدها، فظهرت تقـاطيع الجسـد وهى جالسـة يذكرك بتـمثـال فى متـحف الأقصـر، قطعة واحـدة من رخام أسـود، ولكنه يكاد ينطق بالجمال والـفن، سمعتهـا تقول: ألا تذكره عمـك عبده الذى كان يبيع الطعام أمام المدرسة فى الصباح، وأمام المقهى فى المساء، قلت متذكرًا: آه.

لم أجرب طعـامه، حسنيـة تقول أن الرجل يأخـذ كل ما تطبخـه زوجته ويبيعـه فى أطباق صغيـرة، وكل شئ قابل للطبخ، كمـا أنه قابل للبيع فى أطباق، وعندمـا يفرغ، يعود إلى داره بعد أن يشترى (كباب وكفـتة) يضعه أمام زوجته وأولاده ويأكلون، ومهـما تأخر خارج البـيت لا ينام أطفاله إلا بعد أن يشموا رائحـة الكباب ويأكلوه، وما بقى من ثمن الطعام يناوله لزوجتـه، وأصبح مشهورًا باسم عبـده كفتة،

فقد اشتهر فى حارتنا ببيع الطعام فى أطباق صغيرة ليعود فى المساء وقد حمل كيس الكفتة والكباب، فإذا ضاقت الحارة بطبيخه، قصد عمارة تحت الإنشاء أو وقف أمام باب ملعب الكرة، قلت فى ضيق: ماذا به عبده كفتة هل أفتتح مطعمًا؟، قالت وهى شاردة: فى السجن.. كنت فى زيارته اليوم، وأعطيته (عيش وحلاوة). ضحكت وقلت: بكم؟ قالت دون أن تهتم بسخريتى، لهذا أريدك معى، قلت صارخًا، لكى نذهب إليه فى السجن؟ قالت وقد عادت للوقوف ولكنها ظلت ممسكة بجلبابها الواسع، فتبدى جمال الجسد الانثوى كأجمل ما يكون، حاولت أن اتمالك نفسى وتذكرت أن الأستاذ أخبرنى أن المناقشة قد تحدد موعدها، يجب أن اتصرف تصرف العلماء، قالت: لقد حكى لى كل شئ ألم تلاحظ أنه منذ مدة لم يعد يبيع الطبيخ فى أطباقه الصغيرة؟، تذكرت.. لقد تبدل حاله منذ فترة، كنت مشغولاً بطبع رسالتى واستدنت من حسنية، فعلاً.. تغيرت أحوال عبده كفته ولكنى لم أفكر فيما حدث لكفته، قالت

مســترسلة، بعد أن ضــربه العيال فى ملعب الكرة وقـذفوه بطعامه الفـاسد. ضاقت به الحال ولم يستطع شــراء الكفتة لعيــاله، ذهب إلى البنك، قلت فى دهشة: لمـاذا؟ قالت: أليس البـنك هـو المكـان الذى بـه الفـلوس؟ قـلت: نـعم ولـكن.. قـاطعتنى: أصــمت وكف عن تعـاليك فأنت الآن سكرتيـرى الخاص وسوف أعطيك راتبًا لا يأخذه أستاذك، قلت كفى يا بنت.. لم تكف، عـمك كفتـة جلس فى البنك فأعـطوه أربعة مـلايين، صرخت فـزعًـا: ماذا؟ كـمـا سمـعت قـال لهم أنا صاحب شــركة تصنيع الأغذية الشــهير بعـبده كفـتة، أريد فلوس كثيرة لكى أتوسع فى عملى، أعطوه.

يا حـسنيـة ليس هـذا وقت المزاح، أنا خـاوى الوفـاض ولكنى سأدفع لك كل ما أدين به، قـالت: فقط جعلوه يبصم بإصـبعه علـى عدة أوراق، بل شرب شـايًا ثم أحضـروا له قهوة، بل شرب لأول مرة فى حياته بيرة حلال، بعدها تعود أن يشتريها بالصناديق وكان يوزعها على عياله، الا تصدق لقد أعطوه نقودًا كثيرة قلت: هكذا.. أربعة ملايين!، قالت فى

انكسار: للأسف عندما احصى الفلوس فى البيت. وبعد أن علا صوت زنوبة زوجته وارتفع صراخها، كتم صوتها وعرف أن المبلغ عشرة آلاف. قلت وهل قالوا له أنها أربعة ملايين، لم يعرف، لم يعرف إلا بعد أن دخل السجن أعطوه عشرة آلاف فرح بها، اشترى لزوجته كردانًا كبيرًا، ودراجة لكل عيل، ثم راح يأكل الكفتة كل ليلة، ويشرب البيرة الحلال، لم يكن يعرف أن المبلغ الذى بصم عليه أربعة ملايين، تصور أربعة ملايين.. قلت.. وهل لديه مصانع كما قال؟، هذا هو المهم ويجب أن تفهم يا دكتور، لقد جعلوه يبصم على الأوراق، الاوراق بها كام يا دكتور.. أربعة ملايين، قلت: ولكنه لا يملك مصانع؟، عادت تصرخ فى وجهى: لهذا أعطوه عشرة الاف فقط، ولأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يعرف ماذا فى الورق فرح بالفلوس وطار، وراح يأكل الكباب والكفتة، وطبعًا بعد عام اتهموه بتبديد الفلوس وتبديد المصانع وهو الآن يرقد فى السجن، أليست هذه بصمتك يا عم عبده، ألم تأخذ سلفة من البنك، ألم تعطهم

ضمانات على مصانعك الكبيرة، ماذا يقول؟ لا أعرف؟.. هذا ليس مـهما، المهـم هو بصمـتك وموافقـتك واعتـرافك بأنك أخذت سلفة من البنك.. وراح عم عبده كفتة فى الكفتة، قلت غاضبًا: مالى أنا وهذه الحكاية، قالت فى هدوء:

– إذا كان عـبده كـفتـة راح فى الكازوزة، فلأنه جـاهل وأمى أما نحن..

قلت منزعـجًـا وقد تصـورت مـا سوف يحـدث، أنالا.. حسنية أنا عـلى وشك الحصول على الدكتوراه كـما حلمت دائمًـا. ولكى أكـون صريحًـا مـعك كـثيـرًا مـا فكرت فى الزواج.. زواجك.

لم تهتز ولم تتغير ملامحها وراحت تردد

– نحن الآن فى هذا الموضوع، سنـكسب، سنكسب مالاً كثيرًا وسنقسمـه معًا، لك النصف ولى النصف، ونبنى بيتا مثل هذا.. انظر.

وأخرجت من صـدرها صورة قصر كـبير حوله حـديقة كـبـيرة، كـانت الصــورة ملونـة، أزهار حمـراء وصـفـراء

والأوراق خضراء، وثمار التفاح مدلاة من الاشجار. القصر أبيض اللون متدرج الارتفاع - وسحابة محملة بالمطر قادمة نحونا. سألتها وأنا أرنو إلى وردة حمراء بجانب الكأس التى يتلألأ شرابها تحت أشعة الشمس الواهنة:

- ماذا تم؟

قالت وهى تجلس وقد تهدل شعر رأسها الأسود الفاحم خلف ظهرها .. فيم؟

قلت وقد بدأت الاحظ شدة بياض الفخذين وقد انحسر الشورت الأحمر عنهما!

.. فى الموضوع؟

تناولت كأسها وشربت فى روية، ثم راحت تعدل من فتحة بلوزتها البيضاء الزاهية والمطرزة بزهور صغيرة حمراء، لم أكن متلهفًا لسماع أخبارها، بقدر لهفتى على رؤيتها والحديث معها، وإن كان الحظ معى داعبتنى فى تفضل أستعذبه، ولكنها قطعت شرابها وقالت:

- يجب اتمام الصفقة قبل أن يفيقوا..

- من؟

قلتها بلا مبالاة فقد راحت عـيناى تلتهمانها فى ضراوة،

قالت وقد شعرت بما يدو ر فى رأسى:

- إلا يكفيك أننى صرت زوجتك.

قلت فى عاطفة مشبوبة:

- بل قولى حياتك، قلبك الذى يخفق

ضحكت فى مياعة أعرفها وهى تقول:

- لم نعد فى سن المغازلة.. كبرنا

حســنية، أنا لازلت فى سن المغــازلة والحب، بل فى سن المراهقة تركت لك المال والسلطة، فـقط أريد الحب، قالت فى غضب:

- كفى.. هيا لنذهب إليهم.

قلت فى غيظ

- هل تذهبين إليهم بهذه الملابس.

وقفت فى استعراض، قالت وهى تلتقط مفتاح السيارة

- هذا ما يجب يا .. دكتو ر

وسمعت الواو قطار بضاعة لا يريد أن ينتهى وطقطقة القضبان وأنا أعبر المزلقان لكى الحق بموعد المناقشة ولكن قطار البضاعة لا تنتهى عرباته، والمزلقان لا يكف عن اصدار صوت الموت... وعندما وصلت قال الأستاذ فى مرارة:

.. أول مرة فى حياتى يحدث هذا.. إنها مهزلة!

وانصرفوا جميعًا وظللت وحدى على باب القاعة حتى جاءت وأخذتنى لأرى قصرنا الأبيض، لم تقل شيئًا، ولم اقاومها عندما صعدنا إلى غرفة النوم.

قلت فى انفعال شديد:

– يجب أن ترتدى ملابس أخرى.

قالت فى تحدٍ:

– ولماذا؟

قلت فى ارتباك:

– هذا الذى يبدو.. أقصد ان.. هذا اجتماع عمل.. وضعت يدها حول كتفى، لاحظت أنها لازالت مثل غزال شارد يجب أن أمسك به، قالت:

- ولأنه اجتماع عمل.. ولأنه.. وحيث أن.. ولهذا.

ووقـعنا العقـد، رأيت عـدة أصفـار لم اتمكن من عـدها كانت عيناها تبرق، وفمها تعلوه ابتسامة، وصوت من خارج المكتب يردد دون ملل بيكيا.. بيكيا.. بيكيا..

واحتفلـنا بنجاحنا، وسافرنا إلى أوربا، كـانت مثل طفلة فى مـدينـة الملاهى، تلعب، وتسـأل عن كـل شئ، لا تهـدأ، تروح وتجئ وكلمـا رأتنى مهـدود الحيل، تقول فـى رعونة وبصوت ممدود.

- دكتور.. وبعدين!

وأذهب معهـا أو تأخذنى من يدى لتجرنى خـلفها.. كل شئ تمام، تردد طوال الوقـت، نشـتـرى، نضع نقـودًا فى البنوك نقابل سـماسرة وبائعى ورق يا نصـيب، تختلى بى، اقرأ يا دكتـور.. دعنا نعرف ماذا يقولون قـبل أن (نبصم) هم يأخـذون بقـدر مـا يـعطون، لا يجب أن نبـصـم على بياض.. اقـرأ وسوف أعطيك قـبلة قبل أن تنام.. واقـرأ لها وتصـرخ فى سعادة هـا قد تخطينا الأرقـام التى كنا نحلم بها..

ولكنها اليوم لا تريد أن تعود، حاولت اقناعها بالعودة.

قالت فى بلادة.

- ولماذا أعود.. الفلوس معى

قلت فى مرارة:

- ولكن يا حسنية يجب أن نعود ونعيد.

قاطعتنى فى قسوة لم أعهدها من قبل:

- كف عن هذا يا دكتور.. هم أخذوا مثلى تمامًا.. والحياة خد وهات.. كما أعطونا أخذوا لأنفسهم.

لطمتها فى عصبية، صرخت، عدت أضربها بكل عنف، يجب أن نعود، يجب أن نعيد الفلوس، انها فلوس ناس غلابة..

قالت وهى تمسح الدم النازف من فمها:

- أنا الناس الغلابة.. وهذا حقى.. إذا كنت أنت لا تعترف بأنك غلبان.. عد أنت وأعد لهم مالك، أما أنا فدعنى أرى الدنيا.

استدرت وتركتها بعد أن شعرت بالإرهاق من ضربها، حزمت حقائبى، نظرت إليها، قالت وهى تبكى:

- ألا تقبلنى قبل أن ترحل

خفق قلبى، أحبها. وأشتهيها بقوة، تركت الحقيبة تسقط من يدى واعتصرتها بشوق وكأنى لم أرها منذ سنوات، حسنية.. أحبك، لا أود الابتعاد عنك ولكنها ابتعدت وهى تمسح دموعها. وقالت:

- بلغ سلامى لعبده كفتة.

أيقظنى عبده كفتة من النوم، قال بصوته الخشن.

- مالك يا دكتور.. طول الليل تحلم.

تنبهت إلى يده الغليظة وهى تدفعنى بقوة،.. حلم، كل هذه أحلام.

قال عبده كفتة وهو يضحك فى سخرية:

- مش مهم الحلم.. المهم العلم.. قضيتك ميعادها النهارده أيقظنى عبده كفتة مرة ثانية، راحت كلماته ترن فى أذنى.

- كم قضية مرفوعة ضدك يا دكتور؟

قلت وأنا أستعد لحضور العساكر لأخذى

- من غير ما تعد يا كفتة.

لدغنى بلسانه وهو يقول:

- وطبعًا حسنية فى بلاد بره، ومعاها الكباب كله.

صرخت بكل قوة:

- نعم يا كفتـة.. حسنية معهـا كل الكباب وأنا هنا معى الكفته يا كفته.

وسحبنى العساكر إلى المحكمة، وصوت عبده كفته يرن فى أذنى.

- ولا يهمك يا دكتور.. كلها فى الآخر كفته.!

الأهرام ٥ / ٦ / ١٩٩٧



حكاية امرأة الجيران



إندفعت نحو أمها باكية، قالت الأم:

- الأيام التى تلى ذلك هى الأهم!

وعندما صعدت الدور العاشر فى المبنى الكبير، قال لها الرجل العجوز:

- الأوراق لم تعد مهمة.

طوت الأوراق، وراحت تتأمل السماء الزرقاء المرسومة خلف الرجل الأشيب كان يبتسم وهو يتكلم،.. تذكرت رفيقتها فى المدرسة.

- يقولون أن الرجل ثرى!

ابتسمت، فقد عادت زميلتها باكية، قالت أمها فى غيظ:

- ليست وش نعمة!

سألت حسام، وهما يسيران بجوار حديقة الاندلس عن (وش النعمة)، قال:

- الدولار!

شعرت بالالم وهو يسخر منها، كانت لها أحلامها، تضع رأسها على الوسادة وتسير نحو كوشة الورد، الموسيقى

تعزف والغناء... والطعام، وبعـدها.. تشعر بالإرهاق، عندما تذهب إلى فراشها فى الليلة التـالية تحاول استكمال الحلم، ولكنهـا تبدأ من البـداية، كوشـة الورد والموسيـقى والغناء والطعام ثم يأتى الصباح، سألت نفسها ذات مرة:

– ما شكله.. وما لون عينيه؟

لم تتلق إجابة، قال الرجل العجوز:

– فى البداية سـيكون الأمر صعـبًا، ولكن الأيام كـفيلة بكل شئ..

أعطوها أوراقًا كـثيرة، فى اليوم الأول ظلت تعـمل حتى وهى نائمة، كان السفر فى الاحلام صـعبًا، وحسام سافر، والأب سافر، وكل شئ لم يعد كما كان، قال العجوز.

– ماذا تظنين نفسك.. أنت هنا لا شئ.

حذرتها أمها، الرجـال ليس لهم أمان، كانوا فى المدرسة يحكون عن البنت التى تزوجت من البيـه، والبيه الذى هرب مع البنت، وعندما دخلت غرفة البـيه، لم يرفع رأسه ليراها تذكرت، رفيـقتها وقالت سوف أكـون (وش نعمة).. الرجل

لم يعطنا لحماً منذ أسبوع، والجيران يقولون إننا يجب أن نذهب إلى المسجد المجاور، سأكون وش نعمة، ولكن الرجل لم ينظر إليها، وقال لها الرجل الاصلع فى حسم:

– لا تدخلى هنا مرة أخرى.

وصارت حكاية، الرجل لم ينظر إليها، العجوز يقول أنه مع الأيام يهون الصعب، ولكن الأيام تمضى ولا شئ يهون والصعب تلال، أطفال والجوع سد عال يخنق الهواء، ويجعل من الماء دواء، والناس لا يكفون عن الهمس، والوجه امتلأ بالتجاعيد.

وفى كل يوم، تجلس إلى الماكينة، مع الأيام هان الرزق ولم يهن الصعب، وتعلمت الكلام، وجدت أن الكلام يخرج مع الهواء وكان يعود، وعشرون عامًا والأطفال يكبرون، والطعام يقل، قالت الجارة:

.. رحلت الأم.

بكت النسوة، ورقدت هى على الفراش لأول مرة وحدها، ياه.. الفراش عريض طويل، بارد، تمددت، تمايلت،

تدحرجت، تنفست، دارت بجسدها دارت، البرد زاد غطى البلاد، زاد عن حده، ياه.. صرخت الجارة، اندفعت ترى ما حدث، لم يكن شيئًا ذا بال، قالوا ضربها مقصوف الرقبة ابتسمت النساء فى بلاهة، قالت واحدة فى نبرة ذات معنى:

- ليست وش نعمة.

فضلت الذهاب إلى حجرة الماكينة، ورفعت الغطاء، وقصت على الأخريات الحكاية، نسيت رحيل أمها، ونسيت برد الفراش، ورائحة عطر الموت، راحت تقص..

المرأة قالت لن أسكت حتى أنال حقى، ضربها الرجل بسكين، نزعت السكين من صدرها ودفعت به نحو رأس الرجل، قالت المرأة: اعطنى حقى، قال الرجل أنا ملك يمينك ولكن اعطنى السكين، وقفت المرأة على صدره ورفعت السكين وانهالت عليه ضربًا، قالت: أنت لم ترفع بصرك نحوى، أنت لا تبصر جمالى، أنظر.. ها هو جمالى الحقيقى، أنوثتى، انظر كيف: أبدو، انظر إلى صدرى وإلى شعرى أنه طويل حتى يغطى أردافى..

وتجمع الرجال و راحوا ينصتون، بلغ الرجل الاصلع الأمر، قالوا:

- ذهبنا إلى هناك ولكنهم رفضوا استلامها فكر الرجل الاصلع وهو يردد.

- وماذا نفعل.

قال الرجل العجوز

- لا شئ

ثم جلس وأخذ يراجع الأوراق، تبعه الآخرون، وانصرف الرجل الاصلع، وقال بعض الرجال:

- الزمن كفيل بحل المعضلات.

وقالت النساء:

- أنها تسلينا حتى نتحمل الوقت الكئيب.

أما هى فقد راحت تقص عليهن حكاية امرأة الجيران، فى كل يوم تضيف جديدًا رسمت بالدم على جسدها أقمارًا ونجومًا زاهية.. ثم راحت ترقص هكذا، لا تدرى لماذا ينظرون إليها هكذا فى بلاهة وخاصة الرجال بينما تضحك

النساء، همس لها شاب ذات يوم، وكان ضعيف البصر.

- أنهم يسخرون منك.

ابتسمت فى سعادة، وصاحت:

- اليوم فقط شعرت أننى امرأة.

فى اليوم التالى، كانت تجلس صامتة هادئة، تكتب الأوراق وعندما سألوها عن بقية حكاية امرأة الجيران، قالت دون اكتراث:

- ماتت!

١٩٩٤/٢/٥

اتبعنى

قالت اتبعني، مضيت خلفها، دخلت دارًا، دخلت، قالوا: عن من تبحث؟. لم أجب. طوفت بالدار، قال أصحابها خدعتك، مضيت، رأيتها كانت تقف بالقرب من بائع الخبز. اقتربت وتوقفت بجوارها، سألتها عيناى. قالت وابتسامة شاحبة تطل فى خجل على ثغرها: لماذا هربت، قلت صائحًا:

– بحثت عنك فى كل مكان.

قالت: أنت المفقود، اتبعنى أدلك على الطريق.

قلت: حتى يظل حبل الحديث ممدودًا، أبتغى قلبك، ضحكت فى سعادة، قلت، أبحث عن الأمان والود والرحمة، قالت: كل هذا دفعة واحدة، صرخت فى نشوة يكفينى وإذا زدت فمن فضلك. قالت أدخل خلفى.

دخلت. رأيت بستانًا جميلاً.. أزهار ورياحين.. وأشجار الياسمين. وتمر البرتقال. وجداول ماء. وأعشاش طيور، وأصوات عذبة تغنى، لكنى لم أفارق ظلها، مضيت، سألنى الحارس عن هويتى، رآها ثم مضى، مضيت لم أجدها، بحثت عنها، سألت الطيور فى أعشاشها، سألت الورد،

والزهور، سـالت جداول الماء، جلست مـهدودا، مـحسـورا، أراها فى كل مكان يحيط بـى، أرى العينين فى الماء ترنوان إلى، اقتـرب.. ارتشف من الماء، اسأله تهرب العيـون. أسمع صـوتها، اسـتـدير. أجرى نحـو شـجرة البـلوط الكبيـرة، أتسلقهـا. ربما أجدها فى أعلى الشـجرة.. تهزنى الشـجرة. أسقط، أجرى، أراها أمامى.. يسألنى الحارس عن هويتى ثم يأمرنى بالخروج.

عند النهر وجدتها، تقدمت نحوى فى لهفة وكيانها يرتعد تسـألنى أين كنت.. تسألنى أنا. حـقًا أين كنت.. مـعك أنت، تقـول فى عتـاب، ألم أقل لك اتبـعنى حـتى أدلك، قلت: لا.. أريد ودك الآن، أريد جوابًا شافيًا، قالت وهل لم أجبك حتى الآن، قلت فى تردد: أنا فـى قلبك قـالت كـمـا أنا فى قلبك، قلت لماذا نفترق، قالت: من قال أننا افترقنا، فقط اتبعنى ولا تبتعد، مضت، حاولت أن أسألها ولكن القمر كان قد اكتمل، ورأيت الأرض بيضاء، والمنازل بـيضاء، والناس لا يكادون يبينون، صدمـتنى عربة، تكومت على الأرض، لم أعد أرى،

الأشيـاء البيـضاء اختلطت، تمـازجت مع البشر. سـمعـتهم يقولون.

-- لا فائدة.

صرخت، تكبلنى الأسـلاك الشائكة، ويعجـز صوتى عن البوح، وأهبط فى الظلام، لم أعـد أرى الأشياء كمـا تعودت أن أراها ولكن لمحت عينيـها تنظران نحوى، كانت تبـتسم، وضعت يدها بالقرب من قلبى، قالت:

– لماذا ابتعدت

لم أقـدر على النطق، لم أعـد قـادرًا على الكلام، تخـرج الأصـوات من فـمى أنينًا خـافـتًـا، انظر إليـهـا، لا أرى إلا العينين، أريد أن أقول لها: أحبك، انصرفت قبل أن أحاول... أدور بعـقلى حول جـسدى، أدور فى كل مكان انفـصل عن ذاتى وأسبح فى الفضاء وأعود لأرقد داخل جسدى، تكبلنى الأسـلاك الشائكة المغـروزة فى جـسدى، يؤلمنى صـدرى، أرغب فى أن أعود إليها. أريد أن أمزق أستار اللون الأبيض، والصـمت المـطبق، والخـرس فى لســانى، أريد أن أمـزق الاسلاك التى تنغرس فى صدرى، أريد أن أعود.

عدت، رأيتـها تقف صامـتة، اقتـربت منها، كـان صوتى متكسـرا، مهمـوما، ضعيـفا مثل ارادتى، قلت: أحـبك قالت الناس فى شارعنا يـقولون إن المنازل لم تعد صـالحة وإن، صـرخـت: ولكنى أجــبك، قـالت: وإن الأطـبـاء والعلمـــاء ينصحـون الناس.. قاطعتـها فى رجاء: أحـبك، مضت وهى تبتسم جريت خلفها، لم أستطع اللحاق بها كانت قد اختفت، جلست فى انتظارها، شعرت بالهزيمة، جاءت وهى تضحك، قلت ألا تكلمـيننى، قالت: وماذا أفـعل غير ذلـك معك، قلت: أريد أن أحظى بودك، قالت: أنت الذى تراوغنى كلما اقتربت منك تهرب إلى أحلامك، وتتركنى وحيدة، قلت: لن أفعل.

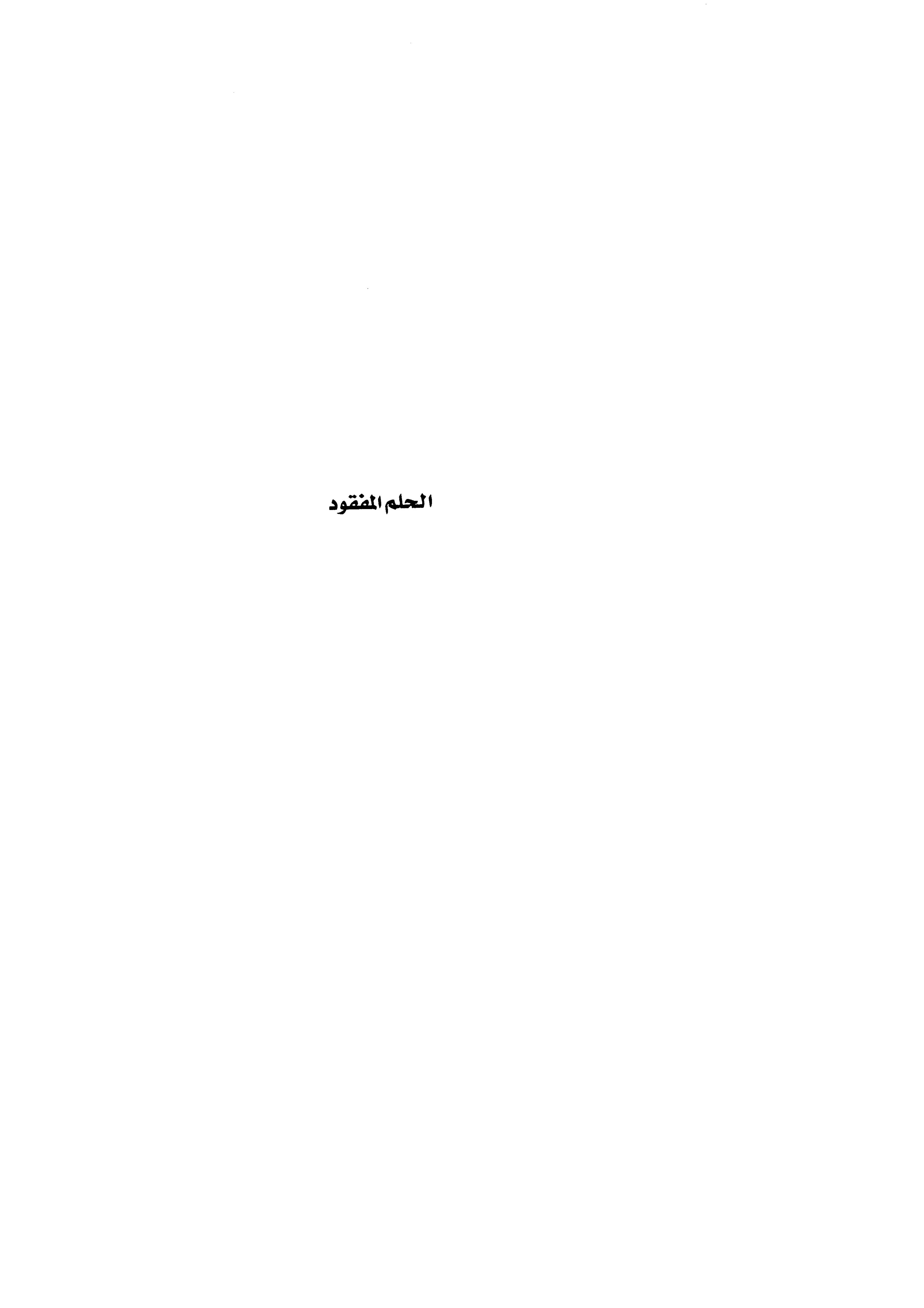
قـالـت: وهل أدلك على الطريـق، قلت هذا تفــضل منك وكرم.

قالت: اتبـعنى.. مشيت خلفـها، الجبـال المرتفعة تصـعد، أصعد خلفـها، أكاد اختنق، تتهدل الجـبال وتنبسط الأرض، وتعوقنا الرمال، ولكنا نمضى.. هى أمامى وأنا خلفها، رأيت كوخًـا من بعـيد، تدفق الأمل فى الوصـول، اقتـربنا، دخلت

الكوخ، دخلت خلفها كان الكوخ خاليًا، ولا أثر لوجودها، صرت أتخبط فى جدران الكوخ، أبحث عن بابه، ولكن الكوخ لم يعد كوخًا صار سجنًا من حديد، سال الدم من يدى، جلست أبكى من الألم، سمعت صوتها، كانت تضحك فى سعادة، ثم سمعت صوتها يردد فى تناغم:

- اتبعنى، اتبعنى، اتبعنى.

الشرق الأوسط - ١٩٩٧/٤/٢٣



الحلم المفقود

وجدتها بجوارى، بعض الاضواء تبرق عبر النافذة الزجاجية بشرتها بيضاء، يحيط برأسها خمار أسود، تنبهت على صوتها يسألنى.

- كيف الحال الآن

لم أجب، الجميع يسألون هذا السؤال، وأنا أبتسم دون أن أجيب، الحال كما ترون جسد منهوك القوى، وكل ذراع تتولاه ماكينة حقن آلية، اسمع تك.. تك.. ليل نهار، والسؤال كيف حالك اليوم، يقولها الأستاذ المشرف على العلاج وتقولها (جيس) كبيرة المرضات، وتقولها كل الممرضات حتى (بولا) المسئولة عن طعامى، ويقولها زوارى من العرب والأجانب، لم أجب، قالت وهى تبتسم:

- لم يسمحوا لى بالدخول

ازدادت ابتسامتى لم أكن أعرف أنهم يمنعون أحدًا، ولكنى قلت:

- أذن كيف جئت إلى هنا.

قالت وهى تجلس بجوارى على نفس المقعد الذى أجلس عليه بالنهار:

- وقتى ضيق وهناك من ينتظرنى خارج المستشفى.

قلت فى لا مبالاة:

- كل من يزورنى يردد هذه الجملة، فاذهبى، فجميعهم يذهبون.

قالت فى حسم:

- جئت أخبرك بأمر ما

تلفت حولى، هل استدعى الممرضة، هذه السيدة لا يبدو عليها أنها من أسرة المستشفى ولم أقابلها من قبل، حجرتى فى نهاية ممر طويل، لو صرخت فلن يسمعنى أحد هذا بالإضافة إلى أن صوتى لم يعد بعد العملية، انى أكاد أهمس همسًا، فحيح يخرج من فمى أحاول أن أجعله جملة مفيدة.

- ماذا هناك؟

سآخذك معى، قالت هذا وهى تشير إلى مجموعة من الرجال يشبهون رجال الأطفاء، حملونى على أيديهم،

شعرت بألم زائد، حاولت أن اعترض ولكن كيف، أصابنى المرض والرقاد بالملل والضيق وأيضا باللامبالاة، وكأن ما يحدث لشخص آخر ولست أنا، بكت ابنتى كثيرًا وهى ترى ما حل بى، نصحها الطبيب بالسفر والعودة إلى الوطن. تظاهرت بالشفاء وودعتها، صرت وحدى بالغرفة، لم يعد أحد يزورنى.. كنت أتسلى داخل نفسى بالخيالات والاحلام حتى نفدت كل احلامى، لم تعد احلامى تطاوعنى ولم يعد خيالى جامحًا، أصبح كسولاً يتلكأ بصرى عند أنبوبة الدواء المعلقة فوق رأسى، أحاول أن أتسلى بعد نقاط الدواء، ولكن صوت آلة الحقن الآلية تلهب حواسى، اتذكر أسرتى، لا استطيع تخيل ملامح ولدى الصغير، ابحث عن شئ اتشبث به - ولكن لا شئ - الحوائط بيضاء وأجهزة الحقن بيضاء - والدم فقط هو الأحمر الذى ينساب فى قطرات ضعيفة بطيئة، النافذة الزجاجية تطل على حديقة، فى البداية أحببت النافذة، واحببت الشجرة التى تقف فى شموخ أمام نافذتى لا تهتم بمطر هاطل أو شمس ساطعة فى وهن رأيت

بالأمس طفلاً يلعب بكرة صغيرة، لعبت معه، ابتسمت وهو يطوحها بقدمه اليمنى، وكدت أبكى لأنه فى المرة التالية سقط على الأرض - جاءت الممرضة ووضعتنى فى البانيو وسكبت فوقى ماء ساخنًا، حاولت مساعدتها - ولكنها نهرتنى فى قوة قالت لى (جيس) كبيرة الممرضات لا تقل لأحد أحبك، قلت لماذا أنا فعلاً أحبكم جميعًا قالت لا تقل هذه الكلمة وكفى، قلت لزميلتها لماذا ترفض أن أقول لها باحبك، قالت هذا له معنى آخر فلا لا تقل لها هذه الكلمة، قلت حسنًا، أنا اكرهكم جميعًا، وسوف أدبر طريقة لقتلكم، ابتسمت وقالت:

- ضعوه هنا.

واحسست بالراحة، كانت الوسائد ناعمة وإن كانت باردة إلى حد كبير والضوء ساطع، والرجال من حولى يتحركون فى رشاقة، أما هى فقد جلست على مقعد وثير وقالت فى هدوء:

- جائع.

أومـأت برأسى - منذ خمـسـة عشـر يومًا والطعـام لا يستـقر بمعدتى أحضـروا لى طبيبًا مـتخصصـًا ولكنه بعد عدة أيام قال لاشئ، ظللت أتقيـأ ثم امتنعت عن الطعام، ولم يهتم أحد، قالت السيدة (سو) من جنوب آسيا.

- اننى حـزينة من أجلك يا صـديقى.. وأود أن أطعـمك بنفسى، كانت تتولى إطعامى بيـدها وتسعد عندما التهم ما تقـدمه لى - ولـكن منذ أسبـوعين وأنا لا آكل وارفض مـا تقدمه لى، قالت.

- سوف يحضر الطعام بعد قليل.

شعـرت أن جسـدى يؤلمنى بشدة رغم أن الفـراش وثير وناعم بالأمس وضعونى فى انبوب مـعدنى بعد أن انتزعوا كل مـلابسى، كـانت البرودة شـديدة بل قـاسـية. وكـان جسـدى كله يرتعد، ولـكن الطبيب اسـتمر فى عـمله وراح يدفعنـى داخل الأنبوب ثم يدور بى الأنبـوب ويزداد الهواء القادم من كل مكان ومن كل اتجاه يصـفع جسدى العارى، حـاولت أن اتحمل أن اسـتخـدم خـيالى وأعـود إلى دارى

بالقـرية وأن اجلس مع جـدى حـول الموقد الـفخـارى وأن أشرب القهوة الساخنة مع أصـدقائى فى حرم الكعبة، وأن اندس داخل لحـاف أمى، ولكن شـدة البرد كـانت تعـصف بخيالـى، تعيدنى إلى واقعى ثلجى. اخـرجنى الطبيب ونظر إلى وجـهى ثم ابتـسم وهو يعـتـذر، تعـودت كلمـة أسف، سمعتهـا وأسمعها فى اليوم مئات المرات، جـميعهم يقولون هذه الكملة، حـتى ذلك الطبـيب القـادم من التـبت والذى لا أفهم له لغة، ولكنه هو الآخر يقول أسف، قالت.

- تناول طعامك قبل أن يبرد.

قلت فى رجاء.

- أريد شايًا.

قالت فى اصرار:

- ليس قبل أن تأكل هذا الطعام.

مددت يدى، أخذت قطعة جبن، كـورتها فى فمى، شعرت بطعمـها الجيد، مـضغتـها وأخذت أخرى، قلت اجـرب نوعًا آخر، تذكـرت طعام أمى، أحن دومًا إلى جدتى، عندمـا أعود

إلى الدار تضع الخبز الساخن فى الطبق ثم تضع عليه قطعة زبد، تهرسهما استمتع بالخبز المهروس بالزبد، ثم أمضى إلى الحارة، وأحيانًا كنت أقص عليها حكايات، من دماغى أروى لها عن احداث تبدو لى هامة، تبتسم، عندما توفيت لم يخبرونى، لا ازال اذكرها بل أحيانًا أراها أمامى وأحادثها، ذات مرة تحدثت مع سيدة المانية كنت اظن أنها هى، لم أفق إلا بعد أن صدمتنى اللغة الألمانية. أكلت شريحة خبز بالزبد، ثم أكلت طبق اللحم، قلت أريد شايًا، احضرت لى الشاى، احتسيت فى سعادة، يبدو أننى أمر بحلم جميل قلت لا داعى للافاقة، دعه يمضى، قالت،

– هل احضر لك شايًا آخر

أومأت برأسى وقلت

– هل سنصل قريبًا

قالت بابتسامة

– المسافة قصيرة، فقط عليك بالصبر

كـان جـســـدى كله يؤلمنى، قلت كــيف تأتى الآلام مع الاحلام، وقفت قالت:

- يبدو أنك غير صابر.

حـاولت التـمـاسك، تناولت حـبـة من دواء قـاتل الألم، شعرت بالرغبة فى النوم، قاومت النوم، فالحلم لا يزال فى بدايتـه، والنوم يعقـبه حضـور المرضـة السوداء البـدينة بابتسـامتها المصطنعـة، سوف تدفعنى لكى اغـادر الفراش، كل همها أن تغير الملاءات وأن يبـدو الفراش منسقًا قاومت النوم، قالت.

- إذا كانت بك رغبة فى النوم فلا تقاومها

قلت وقد شعرت أن الطعام اعطانى بعض القوة

- أريد أن أرى أولادى.. وخاصة صغيرهم

قالت:

- أو لم تشتق الينا.. نحن؟

قلت بسرعة:

- طبعًا

قالت:

- لا تبدو عليك اللهفة لرؤيتنا

قلت:

- كيف.. ألا ابدو ملهوفًا ؟!

قالت

يبدو أنك نسيتنا

حاولت أن اتذكرها، أن اتذكرهم، لا يهم، من هي؟ من هؤلاء الذين نسيتهم، أحضرت لي كوبًا آخر من الشاي، شعرت بالدهشة، فهذه أول مرة يحضرون لي شيئًا أريده ولم أطلبه، قلت: شكرًا.

قالت وابتسامتها تتسع:

- سوف تعود الأيام الخوالي، وتعود إلى ضحكتك المجلجلة.

ابتسمت أنا أيضًا، كيف تعود الأيام، لم اسمع عن أيام عادت، كل الأيام تمضي، قال الجراح الشهير سوف تشفى بعد عدة أسابيع وها هي الأسابيع تمر، وفي كل أسبوع يقول نفس الكلمة، بعد عدة أسابيع، قلت وأنا أقف.

هيا بنا

قالت وقد امسكت ذراعى، ساعتها لاحظت جمالها ولطفها و رقتها

استند على ذراعى

قلت فى ثقة لا أدرى من أين جاءت

- أريد أكثر

قالت دون موارية

- لك كل ما تطلب

قلت فى تخابث

- كل شئ

قالت وهى تمسك بذراعى وتسند جسمى على جسمها

- بل أكثر

لا أدرى لماذا أفكر فى الكلمات، ما هو الأكثر، ما هو كل شئ، أنا لا أملك الآن شيئًا، لا مال ولا مركز ولا شباب ولا صحة، مجرد رجل عجوز مريض وحيد تركوه مقيدًا بفراشه ثم تناسوه، لا أحد يهتم، ماذا أملك حتى يعطينا

شخص ما شيئًا، حتى الكلمات لا أستطيع نطقها بسهولة، صوتى هواء، وجسدى خواء، وجيبى لم يعد ملكى، قالت.

- ها هو فراشك الجديد

قلت فى رعونة طفل مدلل

- لا لا أريد الفراش

قالت:

- أنت و رغبتك.. دعنى فقط أريك أركان البيت، ها هو مجلسك المريح. وتلك النافذة تطل على حديقة، والحديقة بها أشجار الليمون التى تحبها، وازهار القرنفل وورد بديع من جميع الألوان.. وفى نهاية الحديقة نهر بل قل جدول ينساب فيه الماء، يتدفق فى يسر، تسمع خريره، ثم ها هى حجرة طعامك، ثم مقاعد فى كل الغرف، ودهاليز طويلة، بها أشجار خضراء ومصابيح، ثم صالة متسعة أحيانًا اجلس بها، لديك هنا كل شئ.

قلت:

- وأنت

قالت فى زهو:

- وهل يروق لك المكان دونى.

قلت:

- لا.. ولكنى اسأل فقط

- وهل تسأل فى أمر يبدو بديهيا، أنا معك حيث تكون

قلت فى نفسى، ها هو الحلم قد اقترب من نهايته، سوف تفتح الآن الممرضة السوداء باب غرفتى ثم تأمرنى فى جدية أن استيقظ وأن اتعاون معها حتى تنتهى من أمرى بسرعة.

قالت:

- هل احضر لك المزيد من الطعام

قلت فى رجاء:

- لا أريد شيئًا إلا أن أمكث هنا بعض الوقت

قالت فى دلال

- بل تمكث طول العمر، البيت بيتك، وأنا ملك يمينك

قلت:

- يبدو أنك تصرين على إنهاء الحلم الجميل

قالت فى جدية

- من تريد أن تراه أولاً

قلت:

- أريد أن أرى أولادى جميعًا

قالت:

- أنظر

اندفعت ابنتى الصغرى نحوى، بكى ولدى الصغير وهو يمسك بيدى، تشبثوا بى، كنت أعلم أنه مجرد حلم، لهذا لم أحاول الاندفاع فى بحر السعادة رأيتهم جميعًا يقبلوننى، كان الهواء باردًا، ورائحة تعودت عليها تلفح وجهى، وأصوات مختلطة، وقفت تحمل عنى حقيبة صغيرة تخصنى، سألتها فى قلق:

- هل آن أوان العودة من الحلم

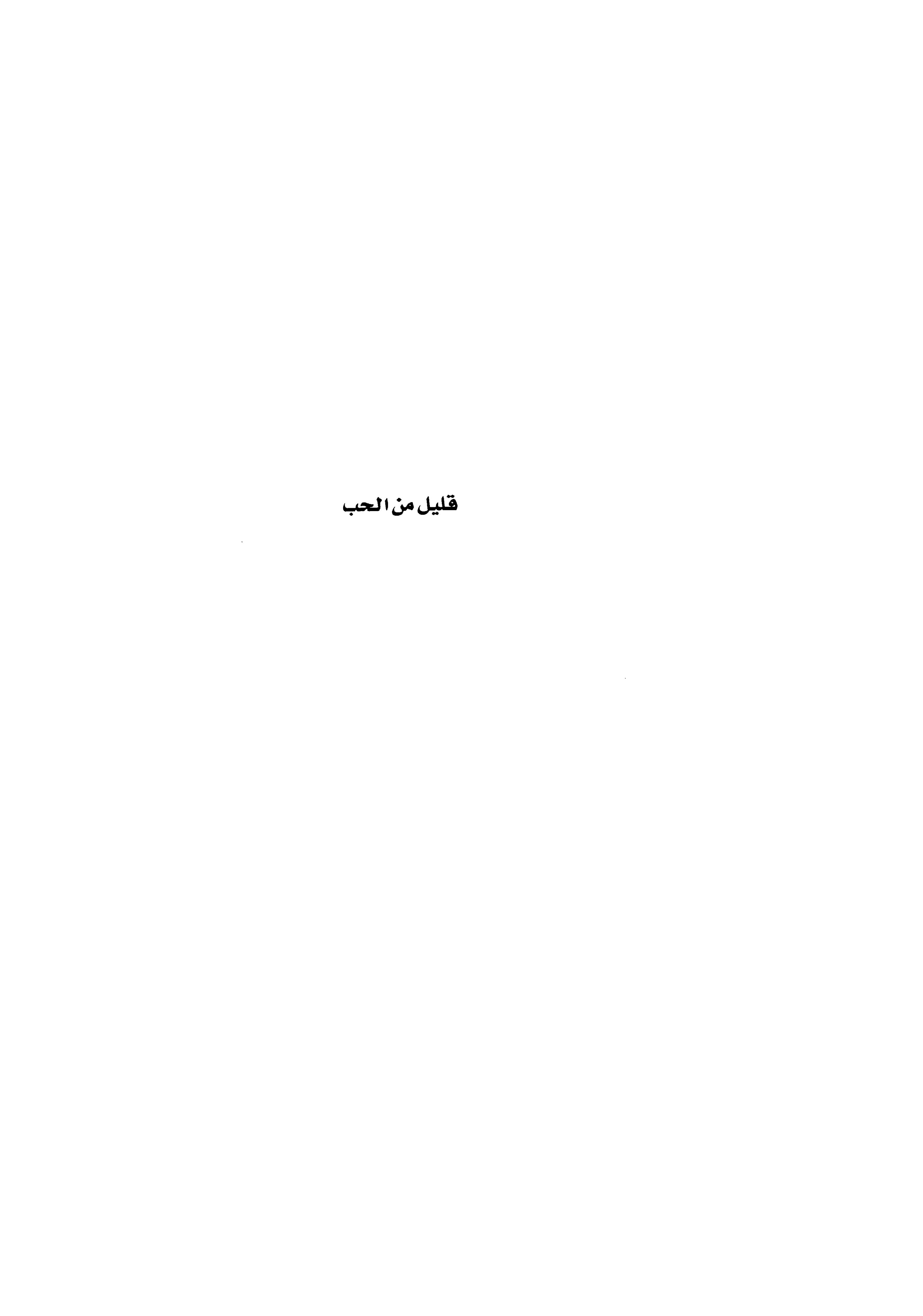
أومأت برأسها، كانت تتظاهر بالشجاعة، اقتربت منها أردت أن أقبلها ولكنها انفلتت من بين يدى، راحت تتحسس

الحقائب وتوزع ابتساماتها على الجميع، والأصوات تختلط، وتتداخل، وجسدى يؤلمنى، دفعوا بى إلى السيارة، تلفت حولى.

قالت:

- أنا بجوارك لا تخف.

٥/١١/١٩٩٦ - الاهرام / الحياة



قليل من الحب

قالت: تأخرت عن موعدى

كان شـعرها الذهبى يتطـاير مع هواء الصبح تحـتضن حقيبة المدرسة، تلمع واسورة ذهبية فى معصمها، قلت وأنا ألهث.

- أحبك

ابتسمت، لمعت الاسنان فى بياض، قالت:

- قلت لك تأخرت عن موعدى

امـسكت بيدها فـى تشبث، لم تحـاول جـذب يدها كمـا توقعت، أحسست أن تيارًا من الدماء الحارة راح يسرى فى جسـدينا، نظرت إلى عينيـها، كـانت السمـاء زرقاء، ولون عينيـها زرقاوان، بيـاض بشرتها يزهو فى ضـوء الشمس الواهن، تسـاقطت حبـات من المطر، كان الميـدان فسـيحًـا، سمعت أغنيـة عربية سرنًا متشـابكى الأيدى، كانت نافورة الميدان يتراقص المـاء فيها فى تدافع، جلسنا، لم نقل شـيئًا، كانت الحمائم تجـرى فى اسراب تحت أقدامنا، قلبى يخفق بشدة مـضى الوقت ولم نشعر، تذكـرت موعد سـفرها إلى

بلدها، لم يكن هناك من وداع،.. فى اليـوم التالى ذهبت إلى نفس المكان من الميدان، ووقفت وسمعت صوتها.

- تأخرت عن موعدى

ولما تلفت لم أجـد الا أســراب الحمـام تجرى فى امـواج متـعاقـبة وأغنيـة عربية تطـن فى أذنى، وسائق التـاكسى يسـألنى بالايطالية

- إلى أين يا سيدى

مجلة الفن ٥/٢/١٩٩٩

هل تتذكرون عبد الفتاح ؟!

اعـشق حلب وكل مـا يذكـرنى بهـذه المدينة الجـمـيلة، خاطبنى حـفيد صـديقى بسام من جنيف، وقـال انه سوف يحضـر لى الحلوى الحلبية التى أحـبها. ابتـسمت وهززت رأسى، قالت ابنتى أنه لا يرى ما تفعل فأخبره بخبرك، قلت له يا هلا.

حـذرنى الطبـيب من أكل الحـلوى وكل أنواع اللحـوم، وتفضل وسمح لى بطعام مـحدد، قلت لابنتى، كنا نلهو كل ليلة ونرقص ونأكل المهـروسة والقـديدة. ونتبـارى فى كل شئ، سـافرت إلى حلب من أجل دراسـة الزراعة، وجـهنى أستـاذى لدراسة الاقتصـاد، وتخرجت فى الجامعـة وعدت إلى القـاهرة، ظلت حلب فى عقـلى وقلبى.. لم أشعـر أننى غـادرت أهلى، وجـدت فى انتظارى خطاب طلب التـجنيـد، اصطحبنى أخى الأكبر ذات صـباح وهو يقول أن الأمر لن يستغرق نصف يوم، فقـدمى بها عيب وضـحك وهو يقول: وعقلك أيضًـا، انك تغنى فى الشارع يا بلـح الشام وترقص الدبكة الحلبية، ودخلت ساحة التـجنيد ولم أخرج، اخبرونى

أننى سابقى، ولم أستطع الاتصال بأخى كنت أريد أن أخبره عن عقلى السليم وأننى لازلت أغنى يا بلح الشام!

سنوات مضت، سعيدا أنا حيث أرقد، أحيانا تضع ابنتى الستائر على نافذة حجرتى حتى لا أرى الثلج المتساقط، أذهب إلى الساحة لحضور عرس حلبى، أرقص وأغنى..

وأحيانًا، أذهب إلى قريتى، حبسونا فى غرفة علوية حتى لا نذهب إلى النيل أو إلى الجبل، يحيرنى أن بلدتنا تربض على النيل وترقد عليه. وينام فوقها الجبل، نصطاد السمك بطرق نختلقها، وبالليل نتجول فى الجبل لاصطياد الثعالب والذئاب، أخذوا منا بنادق الصيد، حولنا قطع الحديد ومواسير طلمبة المياه إلى بنادق بدائية، كنا نخفيها فى حقائب المدرسة مفككة لا تشى بشئ سوى أنها خردة فإذا ذهبنا إلى الجبل اعدنا تركيبها فتصبح بنادق حقيقية أفضل كثيرًا من بنادق الصيد المرفهة، وتحولت رحلاتنا إلى الجبل مع دخولنا مرحلة الشباب إلى مسابقات عنيفة فى الصيد، وسرعة إطلاق النار، وإصابة الأهداف، وأيضًا فى سرعة

تركـيب وفك البندقـية البـدائية المكونـة من مجـموعـة من مواسير وقطع من الحديد... وتمر الاعوام واتذكر أننى كنت دوما أفوز فى كل تلك المسابقات أما أخى الأكبر فقد كان لا يشترك فى المباريات مكتفيًـا بالمراقبة أو قراءة الكتب، قالت ابنتى هذا يكفى اليوم، لقد سـمعت هذا من قبل، قلت ولكن لم يسمع احفادى.. مـرت سنوات عديدة على تلك الأحداث، ربما قالوا لهم أن بنادقنا كانـت من الخشب أو أتينا بها من بلاد أخرى، قـالت: كل الناس تعرف يا أبى قلـت فى هياج، لا.. لم يعـد أحـد يعـرف، ومن عـرف سكت، ومن قـال لم يسمعه أحد،.. هل يذكر أحد: عبد الفتاح ابن خالى كان يعبر ضفة القناة كل ليلة لكى يحضر عدوًا، على الرغم من أوامر قائده بعدم العبور. أين هو عبد الفتاح، انه يجلس هناك وقد شـاخ من الهم وقلة مـحصـول حـقله، هل يتـذكر أحـدهم إبراهيم الذى احتـال حتى دخل خندق اليهود وقـاد من فيه إلى معسكـرنا دون أن يحاول أحد منهم مقاومـته، إبراهيم الذى كنا نسخـر منه عندما يقـبع فى خندقه المحـفور فى

الطين ليكتب رسالة إلى والد عروسه لاقناعه بالموافقة على زواجه، وعندما أصيب بمقذوف نارى فى صدره قال ارسلوا هذه الخطابات إلى والد حبيبتى.. وأسلم الروح، هل تريديننى أن أكف عن الحديث، اسكت لمجرد أن الطبيب قال ذلك، وزميلنا الطبيب محمود الذى كان يندفع تحت قصف المدافع حاملاً أدواته، وعندما طالبناه بالعودة خلف الخطوط قال العمر واحد والرب واحد، وحمل جسد زميلنا الجندى الذى ينزف مسافة تزيد عن ألف متر ثم راح بمهارة وصبر يعمل على ايقاف النزيف حتى نجح وهو يتمتم الحمد لله، واكتشفنا أن بساقه رصاصة اخترقت الجلد والعظم وهو لا يشعر، تقولين اصمت يا أبى، أنا لم أحصل على وسام ولا على نجمة اعلقها على صدرى، أنما فى صدرى حديث طويل أود البوح به، أنا لا أشكو من الألم، إنما أشكو من الصمت، قالت ابنتى: لقد نسيت يا أبى، لقد كرموك وكرموا كل فرقتك، وها أنت الآن ترقد تحت العلاج لانك بطل.

ضحكت، هذه الكلمة تثير غيظى، بطل، بطل لماذا وكيف، كنت اصطاد الثعالب والذئاب، حتى ذلك الذئب الذى اختبأ فى حفرة وانقض على ظهرى ناشبًا أنيابه ومخالبه لم أمهله وأرديته فى الحال، قالت ابنتى فى اعتراض، لقد تشابكت الأحداث فى ذهنك يا أبى، لم يكن ذئبًا كان جنديًا من اليهود اختبأ خلف تبة عالية وعندما حاولت أنت التقدم مع فرقتك لاحتلال التبة أمطرك بالرصاص ولكنك كنت أسرع منه واقتنصته ومن معه.

جاء الطبيب ليحذرنى من الكلام، وقال ان الحالة لا تتحسن، وأنه آسف، قلت عندما حاصرنى الجنود: إن الموت جميل، وأن طلقات النار من حولى مثل (مزيكا) عم عبد الصادق فى أول رمضان،.. واندفع الذئب نحوى وعيناه حمروان تبرقان فى العتمة، وصار الذئب منغرسًا فى صدرى، أنا والذئب كيان واحد، صار كيانى ذئبًا، وتكوم الذئب على الأرض، وشعرت بالحزن.. وعندما اعطونى الأمر بالاندفاع نحو خط النابلم، كناقد تدربنا على هذه

العمليـة عدة مرات، نندفع، نتسلق، نشـرع فى فك المفاتيح، نطلق النار، نعود، نسمع كلمـات التوبيخ من القائد، نعاود، نكرر، نسمع كـلمات المديح، نعاود، نسـبح تنطلق النار من حولـنا...هذه المرة شعـرت بالخوف تسلل العـرق المالح من ذقنى إلى صدرى، ومن أسفل دمـاغى إلى ظهرى،... نظرت إلى خليل كان يتمتم بالـصلاة، رفع يسرى يده بالدعاء، لم نحاول أن نتبـادل النظرات، كنا نخشى البكاء،.. أنت بطل يا أبى، هكذا قـالوا، قـالوا يا ابنـتى، الذين قـالوا لم يجـربوا، والذين جـربوا لم يقـولوا شيـئًـا، لم أكن بطلاً، كنت فـقط خائفًا، صرخ الملازم أحمد، اندفعنا نخشى أن نواجه التوبيخ عندمـا نعود صـعدنا التل، انطلـقت بعض الطلقات لم نعـد نحس لا بالخوف ولا بالشجاعة، كان العقل يعمل بكل قوة، ها هى مفاتيح المواسيـر، وهذه هى الاسطوانات، كما تدربنا تمامًا، انتـهت المهمـة، صاح القـائد للعودة، لم نعـد، كنا قد تحولنا إلى كتلة من الغـضب سنوات الخنادق وطعم التراب والطين وطلقـات المدافع تطن، لم نعد نسـمع اندفعنا حـتى

أقـرب نقطة للعدو، لـم يشعـروا بنا ذبحنا الذئب والثـعلب والثعبان كنا نود أن يبادلونا الهجوم، كانت انفعالاتنا تطغى علينا، المظلوم يا ابنتى أقوى،.. وتكرر الأمـر بالعودة، عدنا، ماكدنا نرجع إلى خنادق الطين حتى انطلقنا نغنى،.. يا عزيز عينى، وضحكنا، وناولنا خليل العصائر المعلبة كان لها طعم جمـيل، لم نكد نفرغ من علب العصـير حتى كـانت الأوامر تغطية نقط عبور جنودنا، كان ابن خالى أكثرنا سعادة، لأنه كان يهـوى اصطياد جند الاعداء،.. وكـان أحيانًا يبـدو مثل حصان يدور حول نفسه فى تحفز دائم..

ولانه كـان طويل القامـة مليح المنظر، اختـاروه فى أول تجنيـده ليكون فى فـرقـة الحـرس، ولكنه صـمم على الانضمام لفرق الجبهة وجاء، وصعد على النخلة العالية فى مـواجهـة القناة، ومـعه بندقـيتـه ومنظاره المكبـر وجهـاز الاتصال، عليه أن يرصد الحركة فى الضفة الشرقية للقناة، وتتـساقط الدانات، وتميل النـخلة ميـلاً شديدًا إلى اليـمين، ونبصره ونحن فى المخابئ ونرى القذيفة قادمة، ونظن أنه

هالك لا محالة، ثم نرى النخلة وقد استوت واستقامت، وتنفجر الدانة بين المخابئ، محدثة حفرة عميقة، ترتفع الأتربة ومعها كتل الحديد المنصهر، ترتفع عدة أمتار كتلة واحدة، ثم تنتشر كما تنتشر النيران مع عصف الريح وصوت الانفجار، ونغوص فى مخابئنا الفردية، نصادق ديدان الأرض، لم نعد نشعر بشئ.. سوى الغضب، دفعنا الغضب وحفرنا الأرض بأسناننا، كانت الذخيرة شحيحة، ولكن ذخيرة الغضب كانت وفيرة، ربض عبد الفتاح فى مكمن وراح يصطاد جنود العدو فى صبر، وكأنه يصطاد الدبابير التى كانت تهاجم خلايا النحل فى دارنا، يطن الدبور الأحمر، يزوم، ليتحرش بالنحل، يلسعه عبد الفتاح بمطرقة من الجلد... صنع لنا عبد الفتاح قاطرة من الدبابير الحمراء، كان يربط أرجلها بخيط رفيع، عشرات من الدبابير، ثم يطلقها، تطير الدبابير وقد ظننت أنها نجت ولكن تتشابك اتجاهات الدبابير كل منها يريد اتجاهًا، يتساقطون، يفرق عبد الفتاح بينهم ثم يعود لاطلاقهم، عنده صبر،

الغـيظ يأكلنى من الدبابيـر، وأمى تحذرنى، لســعنى الدبو ر الأحمر فى رقبتى، صارت منتـفخة تؤلمنى، صرت أنتقم من كل دبو ر أحمــر أراه، أنه يحرمنى من العـسل، أحب العسل وأحب ماء الترعـة الذى يجرى خلف دارنا، وأحب ماء النيل واصطاد السمك، وانـدفعت نحو المخـبأ، كانوا عـشرات لم أعد أذكـر العدد دبابيـر حمراء، بعـضـها كـان يتجـه نحوى بذنبه المدبب، والبـعض الآخر لم ينتـبه لوجودى، لم أشـعر بالألم. حـصدتـهم جمـيـعًا جـاء من بعـدى الرجال راحـوا يحصون الجثث ويمسكون بمن رفع يده، حملونى وأنا أرى دمى الأحمر وهو ينبثق من بطـنى، قالوا أنت بطل، ابتسمت لأننى لم أعد أفـهم معنى الكلمـات.. نهرنى الطبـيب، قالت ابنتى يجب أن تكف عـن الحديث، قلت ومـاذا عن المخـابئ الأخرى، أخشى أن يتناسى الرجال موضـع تلك المخابئ انها لازالت عامرة بالاعداء، دبابير حمـر، لن تأخذهم البغتة مرة أخرى، سوف يهاجمون، وأنتم قـد نسيتم موضـع المخابئ، قالت ابنتى الرجال يعرفون، ادخـل الطبيب فتيلاً طويلاً فى

صـدرى وقال: اسف، وددت أن أضـحك، أن أدخل مـخبـأ إبراهيم وأسمع قصائد شعره، طـبيب يهوى الشعر، وسائق سيـارة يود أن يكتب قصة حبه، وأخى الأكبـر يرسل إلينا الحلوى من بور فؤاد، وقريتى امتـلأت بمهاجرين من مدن القناة... وأنا أفكر فى مـوضـوع رسالـة الدكتـوراه، وأزيز الدانات المرسلـة من الشـرير يعـزف لحن الـغـرور، ينسى إبراهيم الشعر، ويمزق السائق قصة حب ونندفع نحو السد الترابى نأكله، نمزقه، نهـوى بمطارق من حديد ومن ضلوع صـدورنا عـلى عـشش الدبابـيـر، وبيـوت النـمل الأبيض وسـراديب السـوس،... ولن تهـزمنـى الأيام، ولن يهـزمنى المرض الذى يكاد يأكل جسدى، لأننى لازلت أتذكر وسوف أظل متـذكرًا.. حتـى ولو نسى العالم كله، ولن أنسى عـبد الفتـاح صائد الدبابيـر، وضعت ابنتى وسـادة خلف رأسى، قلت:

- هل ستقصين على حفيدى.. حكاية جدهم عبد الفتاح

الأهرام ٦/١٠/١٩٩٨



أودعكم وأنا أبتسم

(هل تذكـرون الرجل الـذى قـتل زوجـتـه) ذهبت إليـه بالأمس، قالوا نقلوه إلى المستشفى لعلاجه من مرض عقلى أصابه فجأة، لم أتخلف عن الذهاب إلى المستشفى، اجراءات الزيارات أخذت منى جـهدًا ووقتًا ومـالا ولكنى تذكرت أنه كان زميل شلة النادى الذى لم أعـد أذهب إليه بعد الحادثة، وعلمت أنهم جمـيعًا تفرقوا، وأن عـدد الأزواج الذين تركوا زوجـاتهم أكـثـر من النصف، وسـمـعت عن الأحـزان التى أصـابت الأبناء، وسـمعت أيضًـا عن الولد الذى سـرق أباه واحتال حتى أخـذ كل ماله، ولما ذهبوا إليه قال: أنا مـستعد للذهاب إلى السجن، ولكن الوالد لم يسـتطع ابلاغ الشرطة، ودخلت حـديقة المسـتشفى، وقـادنى رجل رث الثـياب إلى عنبـر متسـع مكتظ بالأسرة التى كـانت فى يوم من الأيام بيضـاء، كان جالسًا على حافة فراشه، قال عندما رآنى:

- هل تذكر أيام أن كنا فى مرسى مطروح؟

قلت: نعم

ابتسم وقال: شـارع المحطة ازداد اتسـاعًا وقد سرنا أنا وهى عبر الشـارع حـتى معبد الكرنك، قلت مبتسـمًا: تقصد

رحلة الاقصـر؟، قال: نعم، وحدثتنى عن عـشش رأس البر، ودخلنا احداها، واخـترنا اجملهـا، كان البحـر خلفنا، والنيل أمامنا، والصيـادون فى مراكب الصيد يرسلون التـحية كل صـباح، وهى تشـتـرى منهم كل يوم، قلت: حـدث هذا فى مـصيف رشـيـد، قال فى دهشـة: هل أنت مـعنا فى نفس الرحلة؟.

قلت: كنت مـــعكم، قـال أمس ذهبنا إلى مـــحطة الرمل وجلسنا فى انتظـار الترام واشـتـرينا الصـحف وأكلنا، ثم ذهبنا إلى بور فـؤاد، كانوا يحـتلفون بالأمس بحـرق تمثال «اللنبـى» جـاء الرجل الذى أوصلنـى إليـه وقـال الطـبـيب يرجوك الانصراف، قال صـديقى: دعنى أعرفك بزميلى فى الرحلة، كنت أنا وهو وهى نعـبـر مـيـدان النافورة برومـا، عندما سمعـنا صوت محمد عبد الوهاب، قـالت انها تذكرها بأول يوم تقـابلنـا، وكان بـالأمس، قلت: تمهل ولا تجـهـد نفسك، نظر نحوى فى ضيق وقال:

– هل تظننى مجنونًا!

قلت بسرعة، لا ولكنى..

قاطعنى فى غلظة: ماذا فعلت مع زوجتك؟، قلت حزينًا:

انفصلنا، ما كاد يسمع الكلمة حتى انتفض غاضبًا وراح يسبنى فى قسوة، ويتهمنى بالرعونة، والتسرع وعدم الامانة مع النفس، وأخذ يصف زوجتى بالكياسة والطيبة والجمال والاخلاق الكريمة، ولم أحاول مقاطعته، كانت نفسى تمور بأشياء غريبة، أحاسيس مضطربة وعقلى تغطيه غيوم، وقلبى ينتفض من الحزن، وتصاعد الألم من صدرى إلى رأسى، حزين هو لأننى انفصلت عن زوجتى، إنها سمة العصر يا صديقى، فى كل ثانية يأتى مولود وفى كل ثانية ينفصل زوجان، لم تعد الأشياء كما كانت من قبل، وأنت قتلت زوجتك، لم تفعل شيئًا سوى أنها زهدت فيك وتركتك تعوى مثل ذئب جريح، أنت قتلتها والآلاف غيرك لم تكن لديهم الشجاعة مثلك، وآثروا الهروب من مذبحة الذئاب، كل الذكور تذبح بعد التزاوج، خرجت وأنا لا أدرى هل هو على حق أم أنا الذى اخطأت التقدير - قتلها واحتفظ بها داخل عقله، تراكمت الصور واختلطت وضاعت

معـالم الأمكنة والأزمنة صـار الكل فى صورة، والصـورة ثابتـة، لكزنى الرجل في الشارع بقسوة، شـعرت بالمهـانة والاهانة، وددت لو أننى صفـعته ولكنى لم أفـعل، ولم أجد فى نفـسى الشجـاعة لكى أفـعل، عندما طالبـتنى بالطلاق، ظننت أن الأمر لا يعدو أن يكون تهديدًا ووعيدًا، أعرف هذا من الأفلام، ولكنى لم أكن أعرف أن الأمر جاد بالنسبة لها، ذهبت إلى النادى كانـت أم كلثوم تغنى (جددت حـبك ليه)، لا أعـرف، هى لم تعـد تحـبنى، وأنا أحـبـهـا، بكيت، طالت جلسـتى، كان السـاقى يحـضر لى أكـواب الشـاى تباعًـا، شعرت بلسـعة البرد، وبقسوة الفـراق، عدت إلى البيت، لم يعد لى وجود، عـزلتنى ابعدتنى عن قلبها ورأسـها، حاولت النسيان، لم تعد تمل من تـكرار طلب الانفصال، أنا حائر لا أدرى مـاذا أفعل، هل أطلقـهـا، هل أظل هكذا مـثل السنبلة المعلقة على دار عم عباس الجناينى لا نفـع فيها، ولا ضرر منهـا، تخـرج، تدخل، تتـحـرك، وفى كل حـركاتهـا تقـول، فـارقـنى، هل زمن الرجـال ذهب يا عم نجـيب أين (سى

السيد)، أين هيبة الرجال، صديقى خنقها، قتلها، ولكنه لم يسترح، دخلت عليه عقله وهو فى السجن، استولت عليه وتربعت على اكتافه وعاشت بدلاً منه فى جسده، هى هناك فى كل مكان ذهب إليه، اختلطت الامكنة وبقيت هى...
رأيتها تنزلق معى فى ماء مرسى مطروح، تغوص، تصرخ عندما اداعبها تحت الماء، تصعد وهى تشرق مثل ضوء الشمس، تجرى نحو الشاطئ، تناولنى الطعام، تمسح وجهى بيديها، تقبلنى والعرق يبلل كل وجهى، تتشمم ملابسى تقول ان رائحتها معطرة، أشعر بالامتلاء عندما اذهب بمفردى إلى مكان أردد اسمها اتمنى أن تكون معى، أصحبها معى، أصيح فى الأمكنة الفسيحة: احبك احبك، تندفع نحوى حتى لا يسمعنا أحد، شارع المحطة فى أسوان، على يمينه باعة الفول السودانى، هل هو شارع محطة أسوان أم محطة الأقصر، أم محطة بورسعيد، المحطات متشابهة والباعة فى كل مكان، وهى طويلة نحيلة سمراء، تفرض على المكان حضورها، ألف وأدور حولها،

أناديهـا لكى أشعـر أننى لا أزال أعـيش، تضـع رباط العنق حول رقـبتى تقول هذا الرباط أنيق، ثم تقـول كل شئ فيك جميل، انتشى، ألف حولها، أشعر أننى اشتاق إليها، طالبتنى بالانفـصال مثل كل يوم، خـرجت تائهًا، رفـعت رأسى إلى السماء، ناديت يا الله،.. أدور دورة كـاملة، أصرخ، النجدة، لا أحد يقول شيئًا، الأمر يزداد عنفًا، وقلبى جريح، والمرض هدنى والوحدة داخل غـرف المستشـفيات دفـعت إلى عقلى رياح الهـواجس انظر إلى أطفالى، أنام، أحلم بعـالم جمـيل يسوده الهدوء، ولكن الصباح يحمل أخبار الحروب والقنابل والزلازل والسيول، وابتسم عندما فاجأتنى زائرتى بأنها لم تكن تود الطلاق، ولكنها أرادت أن تعرف مدى حب زوجها، ولكن زوجهـا ما يكاد يسمع طلبـها حتى أجابهـا إليه، رجل مطيع، لا يحب مـخـالفـة أمر زوجـتـه، أقصـد التى كـانت زوجته، ضـحكت، مجرد تهديد ورغبة فى المعـرفة، تحولت إلى مأساة والآن هى تود الزواج من سيـد سيده حتى تكيد له، وأين هذا (السيد سـيده) لم يعد هناك سى السيـد، كما

أنه لم تعد هناك الست سيدة، تنازلاهما الاثنان عن السيـ .
لم يعودا إلى عـصر الكرامة، دخـلا عصر الطعـام الجاهز،
والعـلاقة السـريعـة، والأعصـاب المفلوتة، وضـاعت هيبـة
فرويد، وأرسطو وأفلاطون، كما ضاعت الكلمات التى قيلت
والتى كـانت تقال، قـالت لى - انقذت حـياتى من مـصيـر
مجهـول، قلت لا أبغى إلا وجه الله، قلت: أنت تتنكرين الآن
للجمـيل، قالت: الماضى تسـبقه كـان، وكان ذهبت لحـالها،
وتمر الأيام، أراها فى شوارع المحطات فى كل البلاد، أراها
فى صـالات الفنادق والمطاعم ومراكب الرحـلات، أراها فى
الماء، وتحت الماء أراها فى نومى ويقظتى،.. ذهبت إلـيه قلت
لا أريد حـديثًـا مطولاً، فقـط صف لى كيـف قتلتـهـا، نظر
نحـوى فى دهشـة وقال - من؟ قلت: زوجـتك، صـرخ فى
غيظ، أنا لم أقـتل زوجتى، انها مـعى ألا تراها كيف اقـتلها
وهى أمامـك الآن الا تراها، كيف تتـصو ر أن اقتل نـفسى،
روحى، عقلى، قلبى، حـياتى، ثم راح فى حالة هيـاج شديد،
دفعنى الرجل المتـسخ الملابس حتى خرجت من المستـشفى،

عدت إلى البيت، أحاول أن اتخيل كيف أقتل زوجتى، قالت: كن رجلاً وطلقنى، لم أعد كما كنت من قبل، لم أعد رجلاً، تنقلت فى البلدان وفى محطات القطارات، وفى شوارع المحطات، ذهبت إلى النيل فى أسوان، وذهبت إلى البحر فى رأس البر والجربى ومرسى مطروح، ذهبت إلى محطات المترو، عدت إلى النادى جلست وحيدًا، كانت أم كلثوم تغنى، عودت عينى على رؤياك، شربت أكواب الشاى لم أسمع صوتها، ولم أرها فى كل الأماكن التى تصورت أن أراها هناك لم تعد تأتى، لا فى الاحلام ولا فى الخيال... ذهبت، وضاع الحب يا ولدى، وضاعت الأيام، والوفاء، وكل شئ جميل، ودفعت يا ولدى أنت الثمن، ورأيتك فى الميادين والشوارع، وبين أرفف المكتبات، تنادينى وتبكى، لم أعد قادرًا على احتوائك بين أحضانى، لقد قتلتنى أمك، ودخلت أنت شرنقة الألم والوحدة،.. أشعر بالبرد، اتقلص، انكمش على نفسى ولكنى لا أشكو ولا أتذمر.. فقط أودعكم وأنا ابتسم.

الأهرام ٥ / ٩ / ١٩٩٩

الرجل الذى اختلس
سبعة قروش ونصف

عندما عدت إلى البيت وجدت عم رمضان البواب يقف مذعورًا فى مدخل العمارة، اندفع نحوى وذعره يسبقه وورقة مطوية يدفعها نحو وجهى وهو يردد فى خوف.

– عاوزينك فى القسم يا بيه

توقفت ولم أفهم شيئًا، ما علاقتى أنا وقسم الشرطة قرأت الورقة (المطلوب مثولكم أمام رئيس مباحث القسم فى الحادية عشرة مساء اليوم).. قرأتها عدة مرات استدرت مستفسرًا، لم يكن الرجل فى حالة تسمح باعطائى تفاصيل عن هذا الاستدعاء الرسمى.. قالت زوجتى أنهم أخذوا الاستاذ حسنين المدرس بالجامعة من بين أفراد أسرته وهو يأكل السمك، وقد حاول الرجل أن يكمل طعامه ولكنهم رفضوا، زوجتى شاهدت لحظة القبض عليه، سألت وقد بدأ الخوف يتسلل إلى قلبى.

– ماذا يريدون هذه المرة!

قالت زوجتى فى دهشة.

– هذه المرة!.. هل استدعوك مرات من قبل؟

فى المرة الأولى جاءنى رجل يرتدى جلبابًا أخبرنى أنهم يحتاجون سؤالى فى أمر هام، ذهبت حيث حدد لى المكان وفى الموعد الذى أشار به، وعندما دخلت وجدت رجلاً فظًا يرتدى ملابسه الرسمية أشار إلى آخر ليأخذنى إلى الحبس، انتفضت قائلاً.

- لا.. أريد أن أعرف

ابتسم فى سخرية وهو يقول فى تأفف

- يبدو أنك سوف ترهقنا

قلت فى اصرار

- يجب أن أعرف لماذا

ظل يضحك وكأننى أقوم بأداء مشهد مضحك، جاء ضابط بملابس مدنية، توقف الرجل الفظ عن الضحك وقام بأداء التحية، شعرت بالغبطة عندما رأيته تحول هكذا إلى مجرد نفر، نظر الضابط نحوى وسأل عن الأوراق، نظر فيها ثم رفع رأسه نحوى وقال.

- هل تعدنى أن تحضر فى الصباح

قلت فى تشبث

- أعدك

قال وهو يضع الأو راق جانبًا

- فى الصباح احضر معك ثلاثمائة جنيه

قلت دون أن اسأل (لماذا)

- سأفعل.. هل انصرف الآن

سـألتنى زوجتى لم أجـد عندى الاجـابة، المهم أننى فى المنزل الآن، فى الصـباح دفعت المبلغ وعلمت أنـها مخـالفة حكمت بهـا المحكمة ولم أعلم بأمـرها، ا رهقنى المبلغ، ولكن سعـادتى بخـروجى من قسم الشـرطة كانت تفـوق لسعـة المبلغ الذى دفعته، قالت زوجتى:

- لا أريد أن أبحث عنك فى كل أقسام الشرطة

قلت وأنا أتظاهر بالشجاعة

- لا تخافى.. هى أيضًا مخالفة سادفعها وأعود

قالت فى اصرار

- أذهب معك

لماذا.. سأعود حالاً

- ولكنك فى المرة السابقة لم تعد إلا بعد سنة كاملة

- وهل وجودك معى سيحول دون حبسى إذا أرادوا لم تجب، ران الصمت، ذهبت وأحضرت الطعام، لم تأكل، سألتنى أبنتى سؤالاً عن منابع النيل، لم أعرف الاجابة، تذكرت جنود الجيش المصرى واكتشافهم منابع النيل، ضحكت عندما طاف بذهنى ما فعله الانجليز، عادت ابنتى لتسألنى من جديد، نهرتها أمها فى قسوة، وما ذنبها، الطفلة لا تدرى شيئًا عن (الخوف) الذى ربض متحفزًا داخل كل منا، دق جرس الباب، ترددت زوجتى ثم قامت وفتحت الباب، قال الرجل آسف أخطأت رقم الشقة، عادت زوجتى إلى عادتها القديمة، أنها تجيد المشاجرة مع الناس ولكن بعيدًا عنهم، أقصد عندما تكون بمفردها، قالت

- ما العمل الآن

لم تذق للنوم طعمًا، ودخلت قسم الشرطة لابد من المواجهة، حسنا أيها الجندى ها أنا أقف أمامك، نظر فى الأوراق وسألنى فى لا مبالاة.

من أخبرك أننا نريدك؟

حسنًا يمكننى الانصراف، ولكن تأكد من أننى أتيت اليكم، تردد الرجل وعاد ينظر فى الأوراق وهو يقول

- انتظر حتى أتأكد

أخذنى إلى آخر يبدو أنه فى مركز أعلى، نظر نحوى فى تفرس، علم الفراسة من العلوم العربية القديمة، كانوا يتعلمونه مع حياة البادية، قال

- خذه إلى محمود بيه

دفعنى محمود (بيه) فى صدرى بقسوة لا وجوب لها وخاصة أننى مستسلم للغاية، وقال فى أمر.

- خذ ه إلى أسفل

وهناك رأيتنى ضمن مجموعة من الرجال يبدو على ملامحهم الاجهاد والتعب، لم يحاول أحدهم الاقتراب أو التحدث معى، وقفت حتى شعرت بالتعب ثم جلست على الأرض مضت الساعات وكأنها الدهر، لم أشعر بالنوم عندما اقترب منى ولكنى شعرت به عندما غادرنى، جسدى

كله يتمزق، و رأسى تكاد تنفلق إلى نصفين، حجرة الحبس قذرة ودخان السجائر يزيد جوها اختناقًا، قذف أحدهم نحوى بقطعة خبز أكلتها فى نهم، شعرت بالجوع، اشتهيت قطعة جبن فى اليوم التالى أخذونى إلى مكتب وكيل النيابة، أحسست بالطمأنينة عندما رأيت اللافتة نيابة الأموال العامة، إذن هناك أوراق و رجال قضاء سوف يحققون معى كيف أخبر زوجتى بهذه الاخبار المفرحة، لا معتقلات هذه المرة، تحقيق ومحاكمة، ربما أسجن.. ولكن السجن هذه المرة مدون فى سجلات يمكن لزوجتى أن تزورنى إذا أرادت، بل يمكنها أن تحضر طعامًا وملابس..

نظر نحوى الشاب فى سخرية:

– هل تعرف ما هو منسوب إليك

قلت فى صدق واضح

– لا

قال وقد جلس مستريحًا فى مقعده بعد أن أشار إلى بالجلوس:

- منسوب إليك اختلاس سبعة قروش ونصف لم أرد،
يبدو أننى عدت إلى الأحلام التى داهمتنى ليلة الحبس،
وجدته يكمل فى جدية.

- وأيضًا التزوير فى مستندات مالية بقصد التربح
كذلك تضليل العدالة، بالإضافة إلى ما ثبت بالتحريات أنك
قد قمت بتزوير المستند المالى رقم ٣٧١٢ والمرفق بأوراق
التحرى الواردة إلينا من مباحث الأموال العامة و..

قلت مقاطعًا

- وهل تصدق كل هذا؟

قال فى جدية:

- واجبى أن أصدق وأن أثبت ما هو منسوب إليك
والمطالبة بعقوبتك

قلت وأنا أشعر براحة لا أدرى سببها

لندن/ مستشفى الاولد كورت، ترجمت ونشرت بجريدة
لندن اكسبريس ٥ / ١٠ / ٩٦


عودة

استقر فى مقعده بالمقهى، حياه حسين وأبو دراع وضحك فى وجهه عبد الستار، قال لهم أنه اليوم لا يرغب فى الكلام، تقدم منه حسين ونظر إلى عينيه فى استطلاع، قال فى ملل، ولن احكى معكم اليوم، قال عبد الستار ان محمود أبو الفتوح صارح زوجته برغبته فى الانفصال، وأنهم كانوا على وشك مناقشته فى هذا الموضوع إلا أنه انصرف مسرعًا، واقترح حسين الذهاب إلى منزل محمود للاستطلاع وابداء النصح للطرفين، زام متبرما، فجاءة عبده بالقهوة، أمسك بالفنجان وارتعشت يده ارتشف بسرعة رشفة كبيرة، أحس بطعم القهوة الساخنة، ما كاد يبتلعها حتى انتعش قليلاً اعتدل فى جلسته وراح يرتشف القهوة فى استمتاع، قرر الذهاب إلى مطلقته لم يكن هناك ما يبرر ذلك، ولكنه ارتاح عندما قرر ذلك، جاء محمود وأعلن الخبر لقد تم انفصاله عن زوجته بالتراضى، التفوا حول محمود وراحوا يجدلون حبل الحوار، وكلما اطبق الأمر على محمود حث يفلت منه،.. قال حسن أنهم جيمعًا يرغبون..

وقف وأحس برأسه ينتعش من لمس الهواء فى الطبقة الأعلى لوح لهم بيده ثم انسل خارجا من المقهى.

فى الطريق شعر أن كبده عاوده الألم من جديد والرغبة فى الغثيان تعاوده، انطلق سائرًا. كانت الرغبة فى الذهاب تعادل الرغبة فى العودة إلى زملاء المقهى. ولكنه تقدم، عبر خط الضوء المتسلل من دكان الخياط... ضحك عندما رآها ترتدى البالطو الأخضر، كان البالطو طويلاً طويلاً، يذكره برداء خفراء قريته، عندما ضبطته ضاحكًا لسعته بكلمة قاسية استدار وخرج من دكان الخياط، انتظرها حتى جاءت وهى تحمل البالطو الأخضر، فى البيت تشاجرت معه اضطر أن يخبرها برأيه فى البالطو، لم ينم ليلتها لأنه عانى من آلام الكبد.. أراد أن ينظر من ثقب الباب، لعل عبده الخياط يكون موجودًا اقترب من فتحة الباب ونظر، كانا متقابلين ومتلاصقين، ابتعد مذعورًا، اصطدم بصبى يحمل عدة أرغفة وكوزًا به فول ارتعش الصبى وهدد متوعدًا، انطلق يعدو فى ارتباك.

كان قد دخل إلى قمة الحارة، انحرف وزاغ بصره من الضوء الساطع الخارج من محل البقالة. خرج إليه الرجل مرحبًا، كانت الدهشة تعلو وجهه وابتسامة حزينة على شفتيه، قال الرجل أنه متألم مما حدث. ولكنه الآن سعيد، أعد له كيسا مملوءا بأنواع عديدة من الجبن والمخللات وعلب كبيرة من عسل النحل وتناولها فى ارتباك قال الرجل أنه لن يأخذ النقود الآن ودفعه برفق، انطلق والكيس قابع على صدره أطبقت الظلمة من كل جانب، اراد أن يضع الكيس بجوار الحائط ويجرى هربًا، سمع ضحكتها من خلف النافذة المغلقة،.. لم تكن به رغبة العراك، ولكن هى التى دفعته إلى ذلك- كانت تضحك فى سخرية كلما مر أمامها، وعندما حاول أن يتحاشاها خرجت من بيتها وراحت تضحك فى تهكم وتشير إليه. فى كل مرة تفعل ذلك وهو لا يفعل شيئًا، يكتفى بسرعة المرور من أمام منزلها، ولكن تلك المرة هى التى دفعته للاشتباك معها، توقف ثم استدار كانت مازالت تضحك صفعها بقوة أوقعها

على الأرض، ولكنها سرعان ما عاودت الوقوف وواصلت الضحك جذبها من رأسها وراح يصفعها بقسوة، وصدره يضيق ويداه لا تكفان والمرأة تضحك، تقاطر عليه الناس امسكوا به، لاموه، عاتبوه وصرخوا فى وجهه هل أنت أشد منها جنونًا، استدار وقد تحطم شئ ما فى صدره، ارتمى على المقعد مخذولاً، قالت له كنت أظن... أمسك بالفرشاة وقذفها من النافذة وأقسم ألا يعود إلى الرسم... وعندما ضاق به الفراش بحث فى جيوبه عن دواء الكبد، لم يجد نقوده، لسعه الظن، فاجأها فى الصباح بسؤال عن نقوده، تمنى أن تعترف، ولكنها ابتعدت عنه بسرعة وهى تنفى علمها بالأمر كله، تأكد الظن، وانغرست فى قلبه كذبتها - دار فى عقله حوار عنيف - حاول أن يبرر فعلتها ولكن لم يجد لها مبررا زام ومضغ غضبه.



رأيت السماء حمراء

قالت أنها تشعر ببعض الالم أسفل الصدر وانها تريد أن تنام، ذهبت، وجلست أنا لكى استكمل ما بدأت، كان استاذى يهزأ منى لأننى لم استكمل أبحاث رسالتى بعد.

أخذت أقلب فى المراجع، أدون بعض ما أصادفه، سمعت أذان الفجر، رأيت الأوراق المسودة وقد كثرت، والصداع ممسك برأسى، توضأت وصليت الفجر. ذهبت إليه فى حجرته كان راقدًا وقد انزلق الغطاء من على جسده، قبلته وشعرت بحب جارف تجاهه، تأملت وجهه الأبيض، وضعت يدى على رأسه وأنا أقاوم الزهو الذى بدأ يتسلل إلى صدرى، نزعت يدى بصعوبة ثم انصرفت، تذكرتها.. عندما ذهبت لتنام لم تعد فى منتصف الليل كعادتها لتعد لى الشاى، يبدو أنها مرهقة فعلاً، قلت يجب أن اذهب بها إلى طبيب، لم استطع مقاومة النوم فارتميت على مقعد بالصالة ولم أشعر إلا بيدها وهى توقظنى:

- الساعة تدق العاشرة!

وقفت فزعًا، اغتسلت وارتديت ملابسى وجمعت أوراقى وأسرعت خارجًا، فى السيارة تذكرت أننى لم أسألها عن

حالها، ولم أشرب كوب الشاى الذى أعدته لى، قال الأستاذ المشرف بعد أن قلب فى الأوراق:

– هذا لا يكفى.

راح يشرح لى باسهاب كيف أنه جاهد فى سبيل العلم، وكيف سافر وشق الطرق الوعرة لكى يحصل على مادته العلمية من مصادرها... ثم أخذ يملى أوامر اليوم... مراجعة بروفات كتابه الجديد، تنسيق الأوراق التى أعدها لكتاب سوف يحدث ثورة فى عالم الثقافة، مراجعة أوراق طلاب الدراسات ووضع الدرجات لكى يرى كيف أقوم بتقدير إجاباتهم! وشراء ما فى هذا الكشف، وأيضًا المرور على هذه الأماكن لصرف بعض الشيكات وتحصيل أو دفع ما يلزم، قال فى مرح وهو يناولنى الأوراق:

– أنت تذكرنى بولدى الذى سافر إلى أمريكا.

لا أدرى لماذا سافر هذا الولد العاق إلى أمريكا، لماذا لم يظل هنا حتى يقوم بنصف ما أقوم به، عادت إليه الجهامة وهو يقول:

– وكل هذا لن يشفع لك عندى.. فدراستك ينقصها الكثير

عندما عدت مع أذان العشاء، كنت مرهقًا، وزاد من رهقى هذه الكتب التى حملتها من المكتبة، وتذكرت أننى لم أذق طعامًا، أسرعت إليها.. كانت نائمة، شعرت بالحيرة هل اوقظها لكى تعد لى طعام العشاء أم أتركها، فلم أعهد فيها هذا من قبل كنت أعود فأجدها فى انتظارى تبتسم وهى تقدم لى الطعام وتحدثنى عن مشاغبات (سامى) ولدى الوحيد، تذكرته ذهبت إليه فى حجرته، رأيته وهو يعبث بألعابه هالنى أنه راح يحطمها فى قسوة، وقفت عند الباب، وعندما شعر بوجودى اندفع نحوى فى حب، راح يقبلنى، جلست على الأرض وجلس هو بجوارى، راح يتكلم بسرعة عن كل الأشياء التى سمعها أو رآها فى التليفزيون،.. الذراع الحديدية القابض، القوة المهلكة، الاندفاع نحو الهدف لتدميره.. ضحكت كانت الكلمات تخرج من فمه لها رنين خاص، سألته عن معنى كل هذه الكلمات؟. رأيت الدهشة مرسومة على وجهه.. كيف لا أعرف (الكانيتو).. من هو

هذا (الكانيتو).. أنه (الآلى المدمر) الذى سيدمر الكواكب جميعًا.. يا ساتر.. سألته عن أمه قال:

- دفعتنى عنها بعيدًا فجلست وحيدًا فى حجرتى

أخذته من يده، وذهبنا معًا إليها، كانت قد استيقظت قالت أنها لا تزال تشكو بعض الألم وأنها تدرك مدى تقصيرها فى حقنا، اندفع سامى نحوها وقبلها فى حنان، أخذنا فى تناول العشاء اضطررت إلى رواية ما صادفنى،.. ابتسم سامى وقال:

- عندما أصير مثلك سوف اقتل هذا المشرف

صاحت أمه فى وجل، لطمته على وجهه وقالت بانزعاج:

- لا تقل هذا أبدًا

انكمش سامى بجوارى، وضعت يدى على رأسه، كنت ضعيفًا أمام نظراته، قلت ملطفًا:

- أنه يعلمنى لكى أصبح مثله أستاذًا

قال فى اصرار:

- أنا لا أريدك أن تصبح مثله

قالت:

- بل يجب أن تصبح أنت مثله أيضًا

هب واقفًا، وأخذ يبعثر كتبي، امسكت به، تضاحكنا، ارتفعت ضحكاتنا حتى جاءت أوامرها بالسكوت والكف عن هذا الهزر، ذهبت به إلى حجرته، ارقدته في فراشه، حكيت له حكاية السيدة العجوز وبناتها، نام قبل أن أتمها، عدت إلى كتبي وقررت أن أنهى تلك الدراسة،.. كانت تنام كل ليلة ولا تصحو إلا في العاشرة وكنت أنا أظل ساهرًا اكتب،.. لم يفهم سامي شيئًا من برقيات التهاني. ذهبنا ثلاثتنا إلى الشاطئ، يومها عرف أنني نجحت في الدراسة، وأنه أيضًا نجح في المدرسة، تساوينا هو وأنا، أما هي فقد ازداد شحوبها وقلت نضارتها لم تعد تهتم بنا كثيرًا، كانت تنظر إلى السماء ساعات طويلة من النهار، عندما عدنا من الشاطئ، وجدت ترشيحا لي بالسفر إلى جامعة عربية فرحت زوجتي وغضب سامي، حاولت أمه أقناعه بأن هذا في صالحنا جميعًا. وهناك حاولت أن أقوم بعملي كما يجب، كانت الساعات التي أقضيها في المنزل مع أسرتي طويلة ومملة، في البداية سعد سامي بوجوده، ثم بدأ يشعر

بالضيق، أنه لا يفعل شيئًا سوى الذهاب إلى المدرسة والعودة، وهذا الأمر لا يأخذ منه وقتا طويلاً، أما هى فقد رضيت وقبعت بالمنزل لم تعد ترغب فى الخروج كانت النزهة الوحيدة لنا جميعًا الذهاب إلى (السوبر ماركت) أو لمجمع المحلات التجارية، هناك يجرى سامى ويلعب ويلهو، أما هى فكانت تسير وكأنها لا ترى شيئًا.. أقوم أنا بالشراء، كانت متعتى الوحيدة الشراء، شراء كل شئ، تراجعت هى عن الذهاب معنا، وتعودت أن أذهب أنا وسامى، نلعب ونشترى ونشرب الماء البارد، ندور بالسيارة فى الشوارع ثم نعود لكى نجدها قد نامت.. كان سامى دائما يسألنى عن أشياء عديدة يراها فى الشارع وفى المدرسة، أحيانًا اتعجب لأنه يسأل عن تلك الأشياء بالذات، وأحيانًا أقف حائرًا، عقله يدور بسرعة، درجاته فى الدراسة مرتفعة، لا اراه فى المنزل منكبًا على الكتب، بل أجده متعلقًا بالأجهزة الحديثة التى اشتريتها من أجله، لا يكف عن إخبارى بالجديد الذى يكتشفه بتلك الأجهزة العلمية، يتابع الأفلام والمسلسلات بانبهار شديد يحفظ عن ظهر قلب كل

أسماء النجوم، خشـيت عليه، أخذت أجلس معه كل يوم لمدة ساعـة لكى أحـدثه عن كـتب التـراث، علوم الدين واللغـة والفقه، كان يجلس صامتًا، أحـيانًا ينظر إلى ساعته وأحيانًا يسأل بعض الأسـئلة، صحـبته إلى بعض المجـالس القليلة التى نتـقابل فـيهـا مع بعض الاخـوة من أهلنا وهناك تعلو الشكوى من كل شئ. بعضــهم يصر على ذكر كل العـيوب لبلدنا، والبـعض الآخر لا يجـيد إلا سـرد (النكت).. سافـر سامى وأمه.. قـالا هذا يكفى لنا، أكمل أنت إذا أردت، كانت الأموال قد عـرفت طريقها إلى جيبى، عرفت الجـوع والفقر وشعرت بالذلة والهـوان وأنا طفل لا أريد هذا لولدى.. قال الأصدقاء سنوات أخرى لن تضر، نظرت إلى سامى كان قد اكتمل شابًا، وكنت قد تعودت الجلوس إليـه ومصاحبته فى الأسواق وأحيانًا فى المهـرجانات التى كانت تقام فى الأندية ولكنه صارحنى أنه هـو أيضًا لم يعد يرغب فى البـقاء هنا وأنه يريد السفر مع أمه، لقد اشـتاقت نفسه إلى بلده وإلى أهله،.. تذكـرت اخوتى وأخوالى وأعـمامى، لم أبخل علـيهم طوال الأعـوام الماضـيـة، كنت أرسل إليـهـم كلمـا سنحت

الفرصة، ولكن كيف يعرف سامى أهله،.. وصلنا خطاب من سامى وأمه قالا أنهما فى خير حال، وأن سامى بدأ الدراسة فى الجامعة، وأن المسكن الجديد قريب من تلك الجامعة، وأنهما يدعوان لى، و رسائل تروح وتجئ، ولكن الأسواق لم تعد كما كانت سامى ليس معى، ومسكنى أصبح خاويًا، تراكمت الأطباق الورقية وعلب الأكل المحفوظ، وأوراق المسودات، ولم تعد الأفلام التى يحبها الأصدقاء تسعدنى... هجرت الفراش لأنه يذكرنى بها، طنين أجهزة التكييف التى تعودت عليها لم يعد كافيًا لكى أنام.. حزمت حقائبى وجمعت أموالى وعدت..

تحملنى سيارة أجرة إلى مسكن زوجتى وولدى، الشارع هادئ، البناية عالية، توقف السائق وأشار إلى الرقم المكتوب على باب العمارة، هبطت من السيارة، حملت حقائبى ووقفت حائرًا، كانت الخطابات والرسائل قد كفت بيننا، لم أعد أتذكر من الذى ابتدأ بعدم الكتابة، تباعدت المكالمات التليفونية، واصلت السير وأنا أحمل حقائبى، شعرت بألم حاد برقبتى،.. أسرع رجل من أهل الجنوب

نحوى فى فضول يسألنى عن اسمى، وعندما نطقت به، شاع بشر فى وجهه، أسرع وحمل عنى الحقائب وسار متقدمًا إلى المصعد، أخذ يقص أخبار أسرتى... سامى فى المسجد منذ صلاة الفجر والهانم عند الطبيب منذ الصباح، ماذا أفعل ليس معى مفتاح الشقة.. جلست بجوار البواب الذى راح يتحدث عن الشباب الذى يجوب الشوارع حاملاً السيوف.. صرخت فى دهشة، اعادها البواب مرة أخرى، لم أفهم ما علاقتى بحكاية السيوف! بعد قليل حضر رجل يرتدى الملابس البلدية اعطاه البواب مفتاح احدى الشقق، نظر الرجل نحوى فى ود وذهب.. قال البواب انه رجل طيب، أومأت برأسى، كانت الجلسة قد تحولت إلى كابوس.. رأيتها تدخل على مهل وقفت وأسرعت نحوها، نظرت هى نحوى فى اعياء، قلت:

- شفاك الله

قالت للبواب بعض الكلمات، أسرع الرجل بحمل الحقائب... وعندما تمددت على الفراش كان أملى أن أنام،

ولكن ما سمعته منها ومن البواب عْن سامى جعلنى أشعر بالقلق، قلت لها فى لهفة:

- سأذهب إلى المسجد لاحضاره

انتفضت واقفة، ظهر الكبر عليها، شاخ الوجه وشابَ الشعر، وتسمرت التجاعيد على حول ذقنها، قالت فى رجاء:

- أرجوك لا تذهب

قلت، وقد عدت إلى جلستى المسترخية، متظاهرًا بالود:

- هل هناك ما يمنع دخولى المسجد؟!

قالت فى توسل:

- أرجوك يكفى هو

أشاحت بوجهها عنى، سمعت صوت نحيبها المتقطع الذى تحاول منعه، شعرت أننى مقبل على أمر سيئ، تذكرت أننى لم أتوضأ بل لم اغتسل، ذهبت إلى الحمام... بعد الصلاة علمت منها أن سامى لا يبيت هنا فى المنزل وانه يزورها فى بعض الأيام... الشقة خالية من أشياء كثيرة كانت لدينا فى غربتى، دخلت هى إلى حجرتها وأوصدت الباب...

ارتديت ملابسى وذهبت إلى المسجد، لم يكن به أحد، صليت وجلست وسألت رجلاً عجوزًا قال:

- انهم فى الجبل.

- ماذا يفعلون؟

قال الرجل ومضى..، خرجت ودرت حول المسجد وجدت صبيًا يلهو بالكرة سألته فى تودد:

- هل تعرف سامى؟

أسرع وأمسك بالكرة ثم نظر نحوى فى دهشة، أعدت السؤال، جاء صبى آخر قال فى استفسار:

- هل تعرف الأمير؟

قلت فى محاولة للفهم:

- تقصد من؟

قال الصبى الأول للصبى الثانى:

- أنه يسأل عن سامى

سمعت صوتًا نسائيًا ينادى على الصبيين،.. تلفت حولى، أريد أن أعرف أين ولدى؟.. جرى الصبيان وأسرعت أنا إلى أحد الدكاكين، قال الرجل فى هدوء:

- لا أعرف شيئًا.. ماذا تريد؟

أشار إلى البضاعة، قلت معددا بعض الأصناف، كنت أريد أن أفتح معه حوارًا، أحضر ما أردت ولم ينطق بشئ، سألته عن الجبل، أشار إلى جهة الشمال، أسرعت.. بعد حوالى ساعة شعرت بالتعب وقفت باحثًا عن سيارة أجرة، أقبلت واحدة، قال السائق فى تجهم:

- لن أذهب إلى الجبل

قلت مستعطفًا:

- ولدى هناك.

نظر السائق نحوى، ثم مضى، وعند أول الطريق إلى الجبل قال فى حسم

- انزل هنا.

رجوته لكبر سنى، ولكنه رفض،.. بدأت الصعود، كنت أجلس كلما شعرت بالدوران فى رأسى، جاء الليل وأنا أصعد وأجلس،.. وعندما رأيت النجوم خلف الجبل،.. رأيت أشباحًا تتقدم نحوى، رفعت يدى مستغيثًا، اقترب أحدهم وقال فى ود:

- ماذا تريد يا عماه؟

قلت بلهفة:

- سامى.

تبادلوا جميعًا النظرات، انهم يعرفونه إذن، رددت اسمه عدة مرات.

قال الرجل الذى كلمنى أول مرة:

- لا نعرف هذا الاسم.

قلت فى توسل:

- أنه ولدى الوحيد.

أخذنى أحدهم بعيدًا عن الآخرين وقال فى عطف:

- يجب إلا تعرف الطريق إليه يا عماه.

قلت هو ابنى، ولدى الوحيد، أنظر هذه بطاقتى العائلية، أنا مصرى، وهذا جواز سفرى، هذه صورة ولدى سامى، لم أنجب ولدًا سواه كان صديقى، وكنا نسير فى شوارع المدن نقرأ اللافتات، وكنا.. قاطعنى الرجل:

- لن تراه يا عماه.. هذا أفضل لك وله.

قلت فى توسل، جئت بالطائرة، تغربت من أجله، ذاكرت من أجله، كنت أراه وأنا أجمع مواد دراساتى، وأنا أشرح الدرس للطلاب، وأنا أشترى ما يحبه من طعام، كنت أشترى له كل ما يهواه من لعب، أنظر هذه قائمة بما أشتريت من الات وأجهزة حديثة تعاونه فى دراسته الهندسية.. لقد دفعت مقدمًا ثم مكتبه بوسط المدينة اتفقت مع أحد أساتذة الجامعة من زملائى على عدة مشروعات سوف نقيمها هنا فى بلدنا، وسامى سوف يكون مديرًا لها.. قال الرجل لزملائه مشيرًا نحوى:

- أنها غواية الشيطان.

لم أفهم، أى شيطان؟ المشروعات أم المال أم سهرى من أجل ولدى، صرخت وقد تملكنى الغيظ:

- أريد أن أراه.. ثم من تكونون أنتم حتى تحرموننى من ولدى الوحيد جئت قاطعًا كل هذه المسافات لكى أراه، أتحدث إليه، أتحسس وجهه، أراه، أرى نفسى وقد عدت شابًا.. ماذا فعلت لكى لا يأخذ ولدى ما صنعته من أجله..

قذفونى بعـيدا، عدت متوسلاً، زجرنى أحـدهم فى خشونة، والآخر هزنى وكأننى سكران صرخت:

- لن تمنعونى مهما فعلتم من رؤية ولدى الوحيد.

سمـعت صوت طلقات النار، وارتفـعت سحب اللهب، مع سلسلة من أصـوات المتـفجـرات، صـرخت دون وعى وأنا أندفع نحو قمة الجبل:

- ولدى.

جروا جميعًا، جـريت، كان الطريق وعرًا وصوت طلقات النار لا يكف وفزعى على ولدى يلهب قلبى، أجرى.. أصعد، تدوى الانفـجـارات قلت لهـا فـي خطابى الأخـيـر.. لماذا لا يكاتبنى سـامـى؟ لم تعـد هى الأخـرى ترسل رسـائلهـا،.. ناديتـها فى التليـفون، قلت فى حـسم أريد أن أعـرف ماذا تصنعون قالت فى همس:

- ما يشاء الله.

حقًـا يا أم سامى، ما شـاء الله كان، وما يشـاء سيكون، وأنا لن أفقـد ولدى الوحيد باذن الـله،.. ولن اتراجع سوف

أصل إليه... أعرف أنه يتشوق إلى رؤيتى، كان يأخذنى بين أحضانـه فرحا كلما جـئت إلى المنزل، لا يكف عن الحديث، يحكى لى كل شئ، مـاذا فعـل معـه أحمـد، وماذا قـالت له نادية،.. ماذا فعلوا فى النادى، ماذا فـعل فى الامتحان يقرأ لى مـوضـوع الانشـاء، يسـألنى عن مـعنى كلمـة فى آية، يصلى خلفى أو يصلى معى فى المسجد الكبير، كـان يلهو وهو صغـير فى سـاحة المسجـد الكبير وعـندما كبـر كان يجلس ليـقـرأ،.. لن أدعـهـم يأخـذونه، سـامى؟. ولدى هل تسـمعنى؟ أنا هنا فى الجـبل، أنا أبحث عنك،.. لم أعـد أرى سقطت نظارتى الـطبية،.. فـقدت حذائى.. لم أعـد أقدر على الصـعود،.. أجب على ندائى يا ولدى، أنا من علمـك أحرف الكلمـات ولقنك فن الحب، هل تعـصانى يا ولدى.. لم أعـد قادرًا علـى التنفس.. سامى، تعـال لكى تضعنى فى اللـحد بيديك،.. ولدى.. لم أعد أقوى على الحركة.. وسمعت قصف المدافع و رأيت السماء حمراء.

١٩٩٣/٩/٤

لعلهم يتذكرون

عندمـا علـمت بالخـبـر ذهبت إلى هـناك، رأيت الرجـال يجلسون فى صمت، قلت لأحدهم وكـأننى أقدم اعتذارًا عن تأخرى.

- لم أعلم إلا الساعة!

لم يجب الرجل، كـان العرق يتـصـبب منى قطرات على أرض الغرفة، وأزيز (المكيف) يزيدنى ارتبـاكًا، تساءلت مع نفـسى هل يجب أن أراه على انـفـراد، تذكـرت أنـه كـان يخصنى بالحديث عن أسراره، وكـان يضحك عندما اعترف له ببعض متـاعبى، ويقول هذا أمر هين، أمـا ما أحدثك عنه فـهو أمـر جلل، تصـو ر أن الماء نفـد منى وأنا أعـبر جـبل الحيتان، ضحكت وهو ينطق بكلمة جـبل الحيتان، والحيتان توحى لك بالماء، الماء العـمـيق الأزرق اللون، والجـبل عكس ذلك، شغلتنى هذه المفـارقة فلم أتابع حديثـه، ولكنى تنبهت وهو يقـول (ثم دلفنا إلى الدرب المظلم حـتى دخلنا دار ابن سعيد، وحططنا الرحال، ولكن مـاكدنا نفعل هذا حتى رأينا الجدران تهـتز ثم شـعرنا أن الأرض تميـد بنا، هرولنا فى

فزع إلى الخارج، كان الهول فظيعا، تذكرت صرة أموالى.. قلت فى نفسى سيتركها بالطبع لكى يفر بجلده.. ولكنه قال عدت ثانية إلى الغرفة التى كنا بها، واندفعت نحو متاعنا، ووجدت الصرة، وهالنى الصمت المحيط بالمكان، فلا أرض تميد ولا جدران تهتز، وكان النعاس يغالبنى فرحت بالنوم هاربًا.. قلت فى نفسى هذا الرجل يستغل صغر سنى وعدم معرفتى الكافية بعلم البلدان، وقررت أن أضعه فى مأزق على اكتشف صدقه.. قلت له يا عمى أن تلك البلدان لم تعرف الزلازل منذ زمن بعيد، قال فى ثقة ومن قال غير ذلك!.. قلت: أنت، قال باسما.. ما أحدثك عنه تاريخ قديم لعمك الشيخ،.. أحسست بحركة الرجال من حولى، تنبهت فإذا هم وقوف، وهو يدلف إليهم فى ثبات، يبدو أن المرض زاد عليه ولكنه يتماسك، وعندما لمحنى أشار إلى بالاقتراب قال:

- لماذا لم تدخل إلى حجرتى مباشرة.

لم أحــر جوابًا، تلفت حــولى خجــلا، الرجال من حــولى يرمقوننى فى فضول تشــوبه شراسة مكنونة ولكنها تبدو فى حــركة عــيــونهم، جلس وأجلسنى بــجوا ره، أشــا ر إلى الرجــال بالجلوس، ففــعلوا كمــا أشا ر. تقــدم رجل عمــلاق نحونا بالقهوة، شربنا ثم شربنا، كنا ندا رى ا رتباكنا بشرب القهــوة المرة، لم يشرب هو مــثلنا، ظل ينظر نحــونا وكأنه يستــعرضنا واحــدا واحدا، وضــع يده حــول كتــفى وزمنى بقوة، شــعرت بقوة يديه وألم فى عــنقى، ضحك وهو يرى حيرتى وقال.

- أنت أول من يعرف فلماذا هذا الوجل والخوف.

دائمًا لا أجــد الكلمة المناسبــة لأ رد بها على كلامــه كلما وجــه إلى سؤالاً، ظننت بــنفسى الغــبــاء، ولكنه كان دومًــا يشيد بذكائى وطيبتى،.. قال فى حسم.

- سوف يستمر العمل فى المشرو ع.

أبتسم الرجال دون الفرح، وقف فــوقفوا هم أيضًا، كر ر مرة أخــرى أمره الســابق، تململ الرجــال، وأظهر بعــضهم

رغبته فى القاء الأسئلة، أشار بيده فصمتوا، ثم تحرك نحو الداخل، حاول الرجال اللحاق به، ولكنه سرعان ما توقف مستديرًا نحوهم.

- يستمر العمل أن شاء الله، ولا أريد أن يتبعنى أحد.

توقفوا فى خشوع، استدار ليمضى، مشيت بجواره كما كنت أفعل دائمًا، همس فى أذنى فى عطف.

- ليس هذه المرة.

قلت فى تلعثم وأنا أحسب حساب النظرة القاسية من الرجال.

- كنت.. أود.

ابتسم حانيًا وقال فى همس أيضًا.

- ليس الآن.

واختفى داخل حجرته، استدرت لأجد الرجال، يتعاركون، يتضاحكون، يهتفون، وتصاعد صوت المكيف مع أصوات أجهزة أخرى، وجدتنى وحيدًا، لا أحد يعيرنى اهتمامًا.. مضيت وقلت.

لعله يفسر لى الأمر.. فى المرة القادمة.

الفهـرس